

هلاوس
مجموعة قصصية

اسم الكتاب: هلاوس
تأليف: أحمد يسري الصباغ
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/21118
الترقيم الدولي: 978-977-6376-72-4



إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع - 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
محمول: 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة
كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من
الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

هلاوس

أحمد يسري

مجموعة قصصية

obeikandi.com

ضوء في آخر النفق

لو سيل أهل الهوى من بعد موتهم:
هل فرجت عنكم مذ متم الكرب؟
لقال صادقهم أن قد بلى جسدي
لكن نار الهوى في القلب تلتهب

قيس بن الملوح

obeikandi.com

أرى الضوء في آخر النفق.. تلك الساعة من الليل التي يزول فيها ضوء القمر.. لا شيء سوى ضوء النجوم وضوء بعيد من آخر النفق.. «صه!» أقولها للكون من حولي.. أليس هذا صوتها يناديني؟! ألا تسمعها أيها الضوء؟! أهذا أنتِ يا غادة، أهو صوتك العذب الحنون؟! رباه! كم أحب صوتك! كم أعشق نغماته! علوه وانخفاضه.. حركة شفئك وهي تنتج ذاك الخليط من السحر، سحر يخلب الكيان، يخدر الأحاسيس.. حياة كاملة في كل حرف.. أهو صوتك العذب؟! أهو اسمي تنطقينه من جديد؟! هل سمعت أيها الضوء؟ هل رأيت؟ أهى هي أم أن حواسي تخدعني؟ هل رأيت تلك الابتسامة الخاطفة، تلك الدفعة من النور تشع من وجهها لحظات تجعلك تشتاق إلى المزيد، تدرك أنها قد أنهت ابتسامتها لتظل في نهم، لترى ذاك النور مرة أخرى.

كم أحببتك! كم أحببت تلك النظرة الخجلى في عينيك عندما قلتها لك للمرة الأولى في حياتي! كم أحببت ابتسامتك الخجلى وقتها! تلك النظرة في عينيك التي قالت الكثير.. كم أحببتك! قد ابتسمت مرة أخرى أيها الضوء الحزين.. تمد يدها.. أعود إلى بيتي كل مرة في شوق أن أراها، أن ألثم كلماتها اتلهاماً، أن أرى الشوق يتبدد في عينيها.. أعود كل مرة من سفري البعيد حاملاً همومي لتبدها بلمسة يد بسيطة.. أعود من سفري متعباً منهكاً فأرى عينيها، فيعود نشاطي ومعه حياتي من جديد.. أستمد من نظراتها طاقة وجودي.

أعود من سفري لأفاجئها ليلة رأس السنة، فأجدها في أحضان ذاك الغريب.. أقف لوهلة.. أتمنى أن يكون حلمًا، لا.. بل كابوسًا.. أحاول أن أستيقظ.. تداري وجهها مني.. ألجمتني المفاجأة.. كم أحببتك! لم تسليني كل ما أعطيتني فجأة؟! دمعات تهرول خارجة من عيني تغرق المشهد الأثيم.. تشعل نار غضبي.. وحيي.. ذلك السكين.. أراه يهرب..

أأنت من سلبت مني الحياة؟ غضبي يعمي عيني.. يداي وكأنيما نبتت
لهما حياتهما الخاصة.. تتحركان.. تصرعانه.. تنهالا عليه بالضربات..
تلتفان حول عنقه.. تسلبانه الحياة التي يومًا سلبتها مني.. تجلس
غادتي بلا حراك، بلا صوت.. تنظر وتفلت منها دمعة.. تحاول الكلام.
«أحبك»، أقولها. «لم...؟» أسأل دون أن أكمل السؤال.. نظرة منكسرة
إلى الأرض تجيب بها.. يداي تستلّ السكين.. «لم؟ لم؟ لم؟» أسألها مئة مرة
فلا ترد.. «دافعي عن نفسك، قولي أنه أكرهك، أنه هددك.. قولي إنك
لا تحبينه..» دماء تتراقص في الحجرة.. طعنات طعنات، ودموعي تنزل
تغسل جروحها.. يلتصق نصل السكين على وجهي.. «تكلمي». أنهرها في
غضب.. «أحبك».. يقع السكين من يدي.. رباها ماذا فعلت يداي.. ماذا
أفعل الآن؟

تري أيها الضوء لم أجد غيرك رفيق.. اقترب مني أيها الضوء.. اقترب
وأثر ما حولي.. اقترب ودعني أرى وجهها في السماء.. إنها تنادي.. اقترب
واغسل الدماء عني بضوءك النقي.. سأقترب منك أنا.. سأفرد ذراعي
وأخذك في أحضاني.. يلتصق ضوءك على السكين المملّخة بالدماء التي
تجمدت عليها يدي.. أسمعك تطلق صافرتك.. صوتك يغطي على كل
الموجودات.. صافرة حزينة طويلة.. تقترب أيها الضوء وتملأ عيني..
أراها تأتي.. تنادي من جديد.. اقترب مني ودعها تأخذني بين أحضانها..
أفرد ذراعي.. «أنا هنا».. تطلق صافرتك من جديد.. رباها! كم أحببتك!

الكابوس

عندما يلازمك الأرق فأنت لا تُحرم من النوم فقط، بل من الاستيقاظ
أيضًا.

fight club

obeikandi.com

أفيق مفزوعًا.. أفتح عينيّ دفعة واحدة.. أشهق جرعة عظيمة من الهواء أملأ بها رثتي.. أتوقف لثوانٍ قبل أن أفرها.. ألهث بلا توقف كأنما كنت أجري هاربًا من قطع من الكلاب الضالة (أسوأ مخاوفي في الحياة). أتفقد ما حولي في وسط لهاثي، عيناى تجولان في كل الموجودات بسرعة.

- لا بأس.

أهمس بها لنفسي.. تهدأ أنفاسي بعد أن وجدتني ما زلت على فراشي في غرفة نومي.. زفرة قوية أنهى بها كل اضطرابي.. أفرك عينيّ المجهدتين بشدة وأنظر إلى علبة الأقراص المفتوحة بجانب الفراش والغضب يتصاعد بداخلي.. هذا الصيدلي النصاب قال لي إنني سأنام كالأطفال لعشر ساعات على الأقل وإن هذا النوع مستورد، دومًا يهون كلامهم بأن هذا النوع مستورد، حتى تظن من كثرة ما قيلت أن كل ما يبيعونه مستورد.. لم أنم أكثر من ربع الساعة هذه المرة.

- سأقتل هذا الصيدلي النصاب.

صرخت بهذه الجملة بداخلي.. أتابع عقارب الساعة المعلقة أمامي وهي تتحرك وأصغي لصوتها الرتيب.. عقرب الثواني يتقافز قفزات شيطانية بين الأرقام.. يتعالى صوت قفزاته في أذني ليملاً المكان حولي.. تيك.. توك.. هذه خمس ثوانٍ ضاعت من حياتي في عمل لا شيء.. دقيقة.. دقيقة.. خمس دقائق.. يملكني الملل وأعلم يقينًا أني لن أنام في هذه الليلة.

- اللعنة!

أقولها بصوت عالٍ وأقوم من مرقدتي.. أفتح باب غرفتي لأراهم جالسين يشاهدون التلفاز، زوجتي وطفلي الصغيرة.. تنظر زوجتي إلى وجهي المرهق وعينيّ الحمراوين وتقول:

- هل استيقظت؟

أنظر إليها وأنا أحاول أن أرد عليها ردًا لا ينتهي بأن أهشّم رأسها مكافأة على هذا السؤال العبقري؛ نظرت إليها مليًا ولم أجد أفضل من أن أهزّ كتفيّ وأجلس محاولاً الهدوء.

- ألم يفلح المنوم الذي ابتعته اليوم؟

أنظر إليها في حيرة؛ كيف أفلح وأنا جالس أمامك منكوش الشعر منتفخ العينين ولم أنم سوى ربع الساعة؟! أكظم غيظي وأتكلم من بين أسناني.

- ماذا يبدو لك؟ هذا الصيدلي النصاب يبيع لي الهواء للمرة الخامسة على التوالي.. سأريه غدًا.

- ربما ليس العيب من عند الصيدلي.

- ماذا تعنين؟

قلتها بصوت بدأ في العلو.

- لا شيء.

قالتها لتنتهي الكلام وتقطع عليّ فرصة تنفيس غضبي فوق رأسها.

تصمت لبعض الوقت، تمثّل الانشغال بمشاهدة التلفاز الذي يعرض مسلسلًا من تلك المسلسلات التركي التي أكرهها، تقول بصوت هادئ:

- اسمع كلامي، لا بد أن نذهب إلى شيخ.. ما يحدث لك ليس سوى

عمل سفلي.

كانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير، لم تستطع أعصابي

التالفة سلفًا تحمّل المزيد، فانفجرت في وجهها.

- أي عمل سفلي؟! كفى كلامًا عن العفاريات والجن والحسد..

اخرجني من عالم الأساطير الذي تعيشين فيه طوال الوقت يا امرأة.

نظرت إليّ في اندهاش تحاول الكلام، ولكنني لم أعطها الفرصة فأكملت

وأنا أوجّه الكلام لجمهور وهمي كأني أشهدهم عليها:

- تنسى الشباك مفتوحًا وتنام لتصاب بنزلة برد فتجدها تأتيك في الصباح قائلة لا بد أنك محسود.. تفتح حقيبتها فتجد دومًا تلك الورقة المثلثة التي يسمونها حجابًا.. تعوز كل الأشياء إلى عالم الجن والعفاريت.. امرأة خارج حدود الزمن.. إنه القرن الحادي والعشرون؛ عيشي معنا وأخرجي هذه الأوهام من رأسك.

ألهث في انفعال بعد أن فرغت شحنة الغضب من داخلي، بينما تحاول هي الكلام بصوت مبحوح:

- كل ما أريده هو أن أساعدك.

- أشكرك! لا أريد مساعدة من أحد.

تداري وجهها؛ لا شك أي جرحتها، ولكن لا أستطيع السيطرة على أعصابي.. أحب طيبة قلبها لكن يقتلني خواء عقلها.. تحاول ابنتي الصغيرة -التي لم تتعلم الكلام بعد- أن تشد انتباهي.. تقف أمامي وتحاول الإمساك بيدي.. أشيح بوجهي وأسحب يدي من بين يديها متناهية الصغر، فالسخط الذي يعتمل بداخلي الآن أكبر حتى من حب الأب لابنته.. تحملها أمها متجهة إلى الداخل قائلة:

- هيا يا حبيبي نترك بابا لحاله.

تقذفني بنظرة امتزج فيها العطف بالغضب ثم تستطرد:

- بابا أعصابه مضطربة ولا ينام جيدًا.

أراقب خطواتها وهي تتجه إلى غرفة النوم.. جزء مني يصرخ أن قم اعتذر لها، والجزء الآخر يحاول أن يقنعه بصوت غاضب أن ما حدث هو خطأها وعاقبة جهلها وتمسكها بالخرافات.

نصف ساعة مرت وأنا ما زلت في مكاني لم أغير جلستي كالمخمور بلا خمر.. أمسك بالريموت وأتحرك بين القنوات بلا اهتمام حقيقي.. متبلد العقل، مخدر الأحاسيس أجلس وحدي أعاني من الأرق.. عشرة أيام مرّت عليّ وأنا في هذه الحال إلى الآن.. عشرة أيام وذاك الكابوس

يطاردني كلما أغلقت عيني.. أبحث بين القنوات وأفكر في صباي عندما كان التلفاز ينهي الإرسال في وقت متأخر من الليل، كنت أعشق مراقبة الحبات الرمادية تتصارع فوق الشاشة.. مجرد إحساسي أن لا أحد هناك على الطرف الآخر كان يُدب الخدر في أطرافي فأنام كما لم أنم من قبل.. لا ينتهي الإرسال أبدًا هذه الأيام.. نحن موجودون من أجلك أربعة وعشرين ساعة، نعيد ما عرضناه بالنهار في الليل ونواصل الليل بالنهار، حتى لا يفوتك شيء، حتى وإن فاتك شيء بمعجزة ما، يمكنك دائمًا الولوج إلى الإنترنت لتشاهده على شاشة حاسبك.. ربما لهذا فقدنا متعة مشاهدة شيء.. ربما لهذا فقدنا متعة الانتظار والالتفاف حول الشاشة في العيد لمشاهدة شيء لم نره من قبل.. قناة تتبعها أخرى وعياني لا تريان حتى ما يعرض.. تنغلق جفوني للحظات ثم يفتحان بهدوء.. ينزلق رأسي للوراء بهدوء يتبعه وعيي إلى عالم النوم.. للحظة كنت أشاهد التلفاز بلا اكتراث وفي الأخرى كنت هناك.

وسط الظلام والبرد القارص أقف وحدي.. لا شيء على مدى البصر سوى بيت وحيد متهالك يربض وسط الفضاء، لا إضاءة سوى عامود الإنارة الوحيد البعيد القريب يلقي بإضاءة شيطانية على البيت.. تتحرك قدماي بحذر أتلمس طريقي إلى الضوء.. أستشعر أحدهم يتحرك بخطوات سريعة يأتي إلى ناحيتي.. تلتقط أذناي صوت خطوات أخرى من الجانب الآخر.. تتسارع خطواتي ويدب الرعب في قلبي.. أحاول ألا أتعث، فهذا ليس بالوقت المناسب للوقوع أرضًا كالضحايا العاجزين الذين نراهم في الأفلام.. يقترب الضوء، لا أعلم هل أنا الذي اقترب منه أم أنه يتحرك إلى ناحيتي.. تتزايد أصوات الخطوات من حولي ولكني لا أرى أحدًا.. أصل إلى مركز الضوء وأقف أتلفت حولي في كل الاتجاهات لعلي أرى أحدًا.. أسمع الأصوات تقترب.. تتزايد ضربات قلبي حتى أشعر به يكاد يخرج من صدري.. أصوات الخطوات تتعالى كأنها ترج

المكان من حوالي.. أنظر على الأرض من حوالي لعليّ أجد شيئاً أَدافع به عن نفسي.. فجأة يعم السكون.. أرفع عينيّ لأرى أجساداً عديدة كأنها نبتت من الأرض قد شكلوا دائرة أنا مركزها.. يتغير الخوف بداخلي إلى حيرة، فكل من حوالي لهم نفس ملامحي.. لا أبالخ إذا قلت إن كلهم أنا.. أستجمع قواي وأنجح أخيراً أن أتكلم.

- ماذا تريدون؟

لا يبدو عليهم ردة فعل، فأصرخ في وجوههم التي تماثلني.

- أجيوني.. ماذا تريدون؟

ترتفع أيديهم جميعاً في نفس الوقت كأنهم كتلة واحدة، وأصابعهم جميعاً تشير إلى نفس المكان.. أنا.. تتباين ملامحهم لحظتها بين السخط والغضب والازدراء، والكل يحدق فيّ بغلّ شديد.

- أنا لم أفعل شيئاً.

قلتها أَدفع عن نفسي ما يهتمونني به، رغم أنني لم أعرفه بعد.. ترتفع أيديهم وأعينهم في لحظة واحدة تشير إلى السماء.. أنظر إلى ما ينظرون إليه فأرى السماء تخضبت بلون الدماء.. أنظر إليهم مرة أخرى في جَزَع فأرى النار تشتعل من محاجر أعينهم ويتقدمون جميعاً نحوي.. أحاول الصراخ، فكأنما صوتي انحبس في حلقي.. يتقدمون خطوة أخرى والسماء من فوقهم يزداد احمرارها.. تفور من الغضب.. أصابعهم لا تزال تشير إليّ والنار بدأت في أكل لحم وجوههم.. يقتربون حتى أشعر بحرارة اللهب من حوالي و... أستيقظ لاهثاً، أنظر من حوالي لأجدني في نفس مكاني أمام التلفاز.. هل نمت حقاً أم أنها هلاوس الأرق؟ في حالتي الآن لا أستطيع حتى التمييز بين الحقيقة والخيال.. اختلط الواقع بالحلم فصنعا مزيجاً كريهاً أحس بهارته في حلقي.. أزفر من جديد، لماذا لا يتركني هذا الكابوس الكريه لحالي؟ نفس الكابوس بنفس التفاصيل يتكرر كل مرة، كأنها هي رسالة تتكرر حتى أفهمها.. ربما

هي رؤيا، ولكن أليست الرؤى للصالحين والأولياء دون غيرهم؟! لست شيطاناً ولكني لست بهذا الصلاح والصلة بالله حتى تأتيني رؤيا.. ربما هو تحذير، ضوء أصفر ينير ساطعاً في وجهي، محذراً إياي من غضب السماء إذا ما تماديت في انحرافي عن الطريق المستقيم.. أم هو مجرد تنويه عما هو آت لا محالة؟ ربما هي نفسي تشعر بعقدة ذنب وتؤرق مضجعي بهذا الكابوس حتى أكفر عنه، ولكن في كل الحالات، ما الذي فعلت في حياتي لأستحق هذا العقاب؟ أن أحترق حيًّا! توقفت لوهله مفتشاً في ذاكرتي، ولكني لم أجد شيئاً يستحق هذا القدر من العقاب. - لم أقتل أحداً على ما أتذكر.

قلتها لنفسي على سبيل الدعابة ولكني لم أبتسم.. وعيي المشوش خرج عليّ بتساؤل منطقي: وهل يعلم من يستحق الحرق أنه يستحق الحرق فعلاً؟ أسوأ الخُطاة وأشدهم انحرافاً هم من يستصغرون ذنوبهم.. أسوأ الخُطاة هم من لا يعلمون بفداحة أخطائهم.. ربما فعلت ما استصغرت يوماً، ولكن لم يكن كذلك، وعاد ليطارديني في نومي.. ربما دمرت حيوات آخرين بأخطائي وأنا أنصنع البراءة وأظن أنني لم أفعل شيئاً.. نظرت إلى حاسبي في ركن الحجرة وقررت البحث على الإنترنت، فلربما وجدت ما ينهي حيرتي أو يرشدني إلى اتجاه أتحرك فيه قبل أن أفقد عقلي.. أجلس أمام الجهاز بعين نصف مغمضة وأبحث عن الاحتراق في الحلم.. أتصفح في النتائج، لأجد مقالاً اقشعر له بدني.. ماري ريسير من الولايات المتحدة الأمريكية احترقت في منزلها وأكلت النيران جسدها دون سبب معروف، ولم تأكل النيران شيئاً من الأثاث.. جورج تيرنر البريطاني مات محترقاً في شاحنته دون أن تحترق السيارة ودون سبب منطقي أيضاً.. ماري كربنتروهي ماتت محترقة أمام أولادها في قارب وسط النهر ويجزم الجميع أن النار كانت وكأنها تخرج من داخلها، ولم تفلح مياه النهر في إطفائها، وغيرهم كثيرون.. أليس هذا

شبه مطابق لما أراه في حلمي؟ ألم تكن النار تشتعل من داخل أشباهي دون أن تحرق شيئاً من حولهم سواي بالطبع؟

- اهدأ؛ قد يكون كل ذلك كذبة منتشرة على الإنترنت.

أقولها لنفسي ربما دون اقتناع حقيقي.

- سأذهب غداً إلى أول طبيب نفسي أجده، وليذهب رأى الناس الذي

أخافه إلى الجحيم.

أنظر من حولي في عصبية لتقع عيناى على مفاتيح السيارة الملقاة

على المنضدة.. أفتح عينيّ وأفركما بيديّ أحاول أن أضخّ الدماء إليهما

علهما تنشطان.. لا بد أن أستنشق بعض الهواء النقيّ.. أقوم من

مكاني بصعوبة وأرتدي ملابسى على عجل.. أنظر إلى نفسي في المرآة،

شكلي مزرٍ ولكن لا يهم.. أنظر إلى مفاتيح السيارة في تساؤل، ولمّ لا؟!

سأقود بهدوء وربما تنهكنى القيادة فأنام بلا كوابيس، واليوم ليلة

رأس السنة، فلا بد أن الشوارع مكتظة بالسيارات.. أغلق الباب.. أنزل

الدرج.. أدلف إلى السيارة.. أحكم ملابسى على جسدي.. زئير المحرك

الذي انزعج من إيقاظى له في هذا الوقت.. دوران العجلات.. عيناى

تحرقانى والبرد شديد، لماذا دائماً تكون بداية السنة الجديدة باردة بهذا

الشكل؟ عجلة القيادة تتحرك بين يدي وكل الشوارع تبدو متشابهة إلى

حد كبير.. الإرهاق يقتلنى ولكنى ما زلت أتحرك.. أقرّ الآن أنى تأئه لا

أعلم أين أنا، ولكن لا يقلقنى هذا إلى حد كبير، يكفينى أن أخرج رأسى

من شبك السيارة لأجد نصف دسطة من الأشخاص يصفون لى الطريق..

البيوت تقل من حولى ومعها الإضاءة، وعلى مدى بصري رأيت.. بيت

يوحى منظره بالكآبة، وعمود إنارة وحيد يرسل إضاءة واهنة، فلا

يحسّن الأمور.. رجفة باردة سرت فى أوصالى وقتما رأيت هذا البيت..

علمته من نظرة واحدة، كيف لا أعرفه وأنا أراه ما لا يقل عن ثلاث

مرات يومياً فى أحلامى؟!

- هل هو هذا الحلم السخيف من جديد؟ هل أنا نائم أحلم الآن؟
تساءلت بصوت خفيض.. أسأل نفسي هذا السؤال طوال الوقت
هذه الأيام.. هل أنا نائم أم مستيقظ؟ نقرص أنفسنا أو نلطم وجوهنا
لكي نفرق بين الحلم والواقع.. نظن أن الفرق بين الحلم والحقبة هو
إحساسنا بالألم، ولكن من قال إننا لا نحس بالألم في أحلامنا؟ من منا
يستطيع فعلاً التفريق بين الحلم والواقع؟!
- لا لن أهرب هذه المرة.

هكذا صرخت بداخل سيارتي ففي حلمي أهرب دائماً يغمريني
الخوف، ولكن الآن سأجرب المواجهة على سبيل التجديد، كم مرة
تأتيك فرصة أن تحلم وأنت تعي أنك تحلم! أنطلق بالسيارة في اتجاه
كابوسي.. إعصار من التراب يتكوّن من حول السيارة إثر سرعتي فوق
الأرض غير الممهدة.. أتوقف وسط بؤرة الضوء التي صنعها المصباح
المعلق فوق رأسي.. أحبس أنفاسي للحظات، أنتظر الهول الذي لم يأت
هذه المرة.. أزرر مبتسماً، ربما لا بد أن أنزل من السيارة حتى يبدأ
العرض.. أترجّل من السيارة بحذر متلفتاً حولي في كل الاتجاهات.. قلبي
يتواثب في صدري، أسدد النظرات في كل مكان، أحاول أن أكشف الظلام
من حولي.. أقف لدقيقة أتشمم الهواء، كل شيء يبدو حقيقياً أكثر من
اللازم، أم هو بالفعل حقيقي؟! من بعيد رأيته يمشي حثيثاً متجهاً
إلى ناحيتي.. شبح ابتسامة تلاعب فوق شفطي إذ طرأت في بالي فكرة
مجنونة.. واحد آخر يظهر من يميني، واثنان آخران أسمع خطواتهم
من ورائي.. انتظرت حتى اقترب أولهم ليدخل في دائرة الضوء، نظرت
إلى وجهه لأتأكد فكان كما توقعت.. أنا آخر.. لم أنتظر حتى يقترب
أكثر من ذلك، إذ جريت نحوه بكل قوتي مطوّحاً بقبضتي لألكمه..
إذا كان ذلك الحلم يقتلني كل مرة فلم لا ألقنه هذه المرة درساً، ربما
يتركني وشأني.. تشق قبضتي طريقها في الهواء لتضربه في جانب فمه

بكل ما أوتيت من قوة.. يتوقف للحظة ويعاود سيره من جديد
كأنما لا يراني.. أشده من ملابسه وأرميه على الأرض فيعاود الوقوف
ليسير من جديد.. تتكاثر الأجساد من حولي، تأتي من كل صوب، كلهم
يتجهون إلى نفس المكان.. أجرب الأمر مع اثنين آخرين ولكن لا يبدو
عليهم التأثير على الإطلاق.. كالموتى الأحياء يتحركون، يطبقون عليّ من
كل الجوانب ولا أجد مفرًا سوى التقهقر إلى الوراء، إلى منتصف دائرة
كونوها بأجسادهم.. أنظر إليهم في تحدٍ إذ يكملون سيرهم إلى ناحيتي..
فجأة يتوقف كل شيء، حتى الهواء والغبار المتطاير سكن في مكانه..
وقفوا أماكنهم من حولي ينظرون إلى ناحيتي كالمنومين مغناطيسيًا دون
حرك.

- لماذا توقفتم؟

صرخت فيهم:

- لم ينته الحلم بعد.

لا ترمش أعينهم حتى مع كل صراخي.. أتحرك وسطهم كالمجنون.

- هيا أريد أن أنهي هذا الحلم.. أريد الاستيقاظ.

لا رد.

- هيا ارفعوا أصابعكم ناحيتي في سخط واحرقوني مثلما تفعلون كل

مرة.

كأنما انتظروا هذه الجملة، فارتفعت أيديهم يشيرون إلى ناحيتي
دون أن يتغير هدوء ملامحهم.. شاخصة أعينهم إلى مكاني.. أشعر بحرارة
فجائية في راحة يدي.. أنظر إليها في فزع فأجدها تشتعل بالنيران..
أحاول إطفاءها بيدي الأخرى، فأجد النار قد اشتعلت بها هي الأخرى..
أرى النار تشتعل من أقدامي كأنما تبتت من داخل جسدي.. أنظر إلى
يديّ في غير تصديق.. أحاول الكلام أو الصراخ، ولكن النار التي نبتت
من عنقي أكلت صوتي قبل أن أفكر في الصراخ.. تساءلت طوال حياتي،

هل أنا مستيقظ حقًا أم أن كل ما أنا فيه هو مجرد حلم! كل ذكرياتي ولحظاتي، التعميس منها والسعيد، كل ما كافحت وتعبت من أجله هل حدث فعلاً.. هل أصحو فجأة فأجدني مجرد طفل في العاشرة من عمره وكل ما عشته كان مجرد حلم؟ النار تنتقل بين أعضائي بكل حيوية.. هل أنا حقًا أموت؟ ربما أنا الآن نائم على الكرسي أمام التلفاز وأحلم نفس الحلم مرة أخرى.. ربما أنا أحترق فعلاً في مكان آخر وأحلم أنني أحترق في هذا المكان.. ربما سأستيقظ الآن، وربما لن ترى عيناى النور مرة أخرى.. لا يهم، كل ما يهم هو ذلك الخدر اللذيذ الذي يسري في أوصالي ويثقل جسدي.. هذا الظلام المخملي الذي يطبق على وعيى من كل الجوانب.. كل ما يهم.. أن أنام.

الآخِر

كتب أرنست هيمنجواي ذات مرة، العالم مكان جيد ويستحق
المحاربة من أجله.. أنا أتفق معه في الجزء الثاني.

Se7en

obeikandi.com

لماذا نخاف الدماء؟ لماذا نخافها مع أننا نعلم أن لا حياة لنا من دونها؟ تسري بين أوصالنا تحمل الحياة بين جزئياتها.. تبعث الدفء في عروقنا.. تغذي القلوب والعقول.. تغذي الحب والكُره، القوة والضعف، الشجاعة والخوف.. ربما نخافها لأنها تذكرنا بالموت الذي نتناساه.. كيف يتناسى الناس الحقيقة الوحيدة المطلقة في دنيانا المربكة المتفككة؟ كيف ينسى الناس أن لا حياة بلا موت ولولا الموت ما استمتعنا بالحياة؟! أراقب السائل الأحمر ينسال على ثنيات أصابعي.. يتساقط إلى الأرض.. يحمل ذكرياتي وفرحي وحزني.. يحملني، كل قطرة منه تحمل ذاتي.. تحمل وجودي نفسه.. أراقب انعكاسي الشاحب في المرآة أمامي.. أسمعهم يصرخ بداخلي.. ينزف.. يحاول التحرر بلا فائدة.. يتخبط داخل ثنانيا عقلي.. أنبسم بشماتة.. أنظر إلى انعكاسي في تحدٍ.. بينما يتسع ذلك الثقب الأسود أمام عيني، منذراً بالنهاية القريبة.

* * *

هل تريد أن تمتع نفسك الليلة يا باشمهندس؟

* * *

أتذكر أول يوم علمت بوجوده، كان منذ ثلاثة أسابيع بالضبط.. لا أعلم يومها لم استيقظت فرغاً من نومي، كأنها يد قوية باردة اعتصرت قلبي.. انتبهت حواسي كلها وقمت جالساً في فراشي.. أغمضت عيني لعلني أهدأ.. انتظمت أنفاسي اللاهثة بعد فترة ليست بالوجيزة.. حاولت النوم مرة أخرى واستلقيت.. أنظر إلى المنبه الرابض بجانب فراشي لأرى أن الساعة لا تزال الرابعة صباحاً، وهذا يعني أن ما زال أمامي أربع ساعات أخرى من النوم قبل أن يوقظني المنبه بصعوبة لأذهب إلى عملي.. أغلق عيني مرة أخرى بهدوء وأتدثر بالأغطية، ولكن صوتاً

ظل يصرخ في عقلي أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام.. أفتح عيني مجدداً وألاحظ هذه المرة ذلك الشيء اللامع الذي يقبع بالقرب من المنبه.. أحاول تذكر ماذا كان ذلك.. لا أجد ما يشير في ذاكرتي إلى أي وضعت في ذاك المكان شيئاً.. حاولت أن أنام مرة أخرى وأقنعت نفسي أي سأتحقق منه في الصباح، ولكن ظل ذلك الشيء اللامع يثير الفضول بداخلي، حتى قررت أي لن أنام إلا إذا عرفت ماهيته.. قمت من رقدتي وأنا أعلم بداخلي أي لن أجد شيئاً ذا قيمة، ربما مسمار معدني وقع هناك بالصدفة منذ أسابيع.. تحركت على الأرض الباردة ووقفت للحظة أنظر إلى ذلك الشيء.. مفتاح معدني شكله يختلف عن كل المفاتيح التي رأيته في حياتي.. تسمرت في مكاني من المفاجأة، فكيف بشيء لم أراه من قبل في حياتي أن يشق طريقه إلى داخل حجرة نومي؟ لامست أصابعي المفتاح البارد بتردد، وتطايرت بقايا النوم من عيني.. جلست على الفراش وعيناى معلقة بالمفتاح بين أصابعى، أعتصر ذاكرتي لعلي أعرف عنه شيئاً.. حاولت النوم مرة أخرى ولكن هيهات، فكلما أغمضت عيني رأيت صورة ذلك المفتاح وتسارعت عشرات الافتراضات العقلانية والمجنونة تتراقص في عقلي عن كيفية وصول هذا المفتاح إلى هنا.. في الصباح التالي اتجهت إلى عملي بعدما قررت أن أضم لغز المفتاح إلى سلسلة الأسئلة السخيفة التي لم ولن أعلم لها إجابة، مثل: أين تختفي جواربي؟ أين تختفي نقودي القليلة بعد عشرة أيام من بداية الشهر؟ أين تختفي البواب عندما تكون في أمس الحاجة إليه بينما تجده أمام عينيك طالما لا تريد منه شيئاً؟ لماذا قررت زوجتي أن تترك البيت فجأة دون مقدمات ودون حتى كلمة وداع؟ ربما نظرت إلى المفتاح لخمس دقائق أخرى ليلتها قبل أن أقرر أن ألقيه بعيداً في أحد الأدراج حتى لا أشغل تفكيري به مرة أخرى.. نمت ليلتها آملاً أن تمر الليلة بسلام، ولكن كسابقتها استيقظت فزعاً قبل الفجر بدقائق.. نظرت إلى المكان

الذي وجدت فيه المفتاح في السابق، ربما لأثبت لنفسي أن كل شيء على ما يرام.. نظرت للحظة قبل أن ينتصب شعر رأسي وتتوقف أنفاسي من المفاجأة، وأففز واقفًا من فراشي.. شريط من الأقراص المنومة مثل الذي كانت زوجتي تستخدمها عندما تعاني من الأرق، علمته من لون أقراصه وشكلها المميز.. امتدت أصابعي المرتجفة تلتقط شريط الأقراص من مكانه، بينما قشعريرة باردة تمتد بطول عمودي الفقري.. تهاوى جسدي على أقرب مقعد موجود بالغرفة من حولي، بينما دوامة من التساؤلات تعصف بتفكيري.. أعمل تفكيري في تفسيرٍ منطقي لوجود تلك الأشياء التي لم أرها من قبل في غرفتي.. إما أي جننت أخيرًا، أو أن للموضوع علاقة بشيء خارق أبعد من علمي.. لم أعلم وقتها ما أفعل سوى أن أهبط من مجلسي وأبحث عن المصحف لأقرأ فيه حتى الصباح.

كان الصباح التالي مليئًا بالمفاجآت، بدأته بأن وجدت ذلك الحبل الغليظ مخفيًا بعناية في أحد الأركان، بينما كنت أفتش الشقة كلها لأرى إن كانت هناك مفاجآت جديدة.. مفاجأتي الثانية كانت مع البواب، بينما أغادر مسكني متجهًا إلى عملي.. وجدته متجهًا أكثر من عادته، ينظر إليّ كأنما يعاتبني في داخله، ولما سألته عن سبب توجههم أحاب والخوف يُطلُّ من عينيه أن لا شيء.. رأيت أحد الجيران فناداني وقال:
- جيدٌ أن أراك تحاول مصالحة البواب، فما أحدثته فيه ليلة البارحة لم يكن بالقليل.

زاد جحوظ عينيّ الحماوين، بينما تكاثرت علامات الاستفهام على وجهي، وجاري يكمل:
- لو لم تكن صالحته كنت سآتي إليك.. أنا أعلم أنك شخص طيب ومسالِم ولم أكن أتوقع منك أن تفعل مثل ذلك.
كانت كل كلمة تخرج من فمه تخلق علامة استفهام جديدة في

عقلي.. هل جُنَّ الكون أخيراً من حولي، أم أن عقلي أنا الذي أصابه الجنون؟ استوقفت الجار قائلاً:

- ماذا تقول؟ ما الذي فعلت؟

- ألا تتذكر؟! لقد أيقظت جميع السكان على صوتك وأنت تسبه بأقذع الألفاظ، وأنهيت الأمر بأن لطمته على وجهه! بالمناسبة، ماذا فعل لكل هذا؟

كان كل هذا أكثر من قدرتي على التحمُّل.. قلة النوم، الإجهاد العصبيّ والنفسيّ، كل تلك الأسئلة المعلقة بلا إجابة.. لم أدرِ بنفسِي إلا وقد أظلمت الدنيا من حولي، وغبت عن الوعي.

عندما أفقت وجدتني في نفس مكاني وجاري يرش الماء على وجهي، بينما علامات الجزع تملأ وجهه.. لم أعلم ما أفعل سوى أن أطلق ساقِي للريح، ركضت في اتجاه الشارع بينما علامات الدهشة تملأ وجه الجار والبواب.. أركض بلا هدف بعينين لا تريان من أمامي، وعقل لا يتوقف عن طرح الأسئلة.. المفتاح، الحبل، المنوّم، الجار والبواب.. لا تفسير منطقي إلا أنني أمشي وأنا نائم، أو أنني ملبوس كما يقولون، أفعل أشياء دون أن أدري عنها شيئاً.. عندما تعبت قدمي واشتد لهائي أفقت من أفكاري على النيل ممتد على مدى بصري.. استندت بكلتا يديّ على الكورنيش مواجهًا الماء وانهمرت في البكاء بلا صوت.

* * *

قبل أن أذهب معك.. الدفع مقدم والطعام عليك.

* * *

ظللت هائماً على وجهي في الشوارع أتحرّك بلا هدف.. سمعت أذان الظهر من مسجد قريب، فاتجهت إليه منكس الرأس أشعر بالخجل، فأنا لم أدخل مسجداً منذ زمن بعيد.. اغتسلت ووقفت في الصف خلف الإمام، وعندما انتهت الصلاة اتجهت إلى الإمام.

- السلام عليكم يا شيخ.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- عندي سؤال وأرجو أن أجد عندك الإجابة.
- اسأل وإجيبك إن كان عندي العلم إن شاء الله.
- منذ أيام وأنا أجد أشياء لا أعلم عنها شيئاً في منزلي، واليوم وجدت من يخبرني بأشياء لا أتذكر أنني فعلتها.. هل أنا ممسوس؟
- نظر إليّ ملياً ثم اعتدل في جلسته، وقال:
- اذهب وائتني بهذا المصحف من هناك.
- أتيته بالمصحف فأمرني أن أفتحه وأن أقرأ عليه من سورة البقرة، ففعلت.. استوقفني سائلاً:
- هل تشعر بالضيق عند القراءة؟
- بالعكس.. أنا أشعر بالراحة.
- إذن ما بك ليس بمس من الجن، والله أعلم.
- إذن ماذا بي؟
- نصيحتي إليك، واظب على الصلاة والقرآن واستشر طبيباً، فكما خلق الله الدواء خلق له الدواء.
- شكرته وقمت دون اقتناع حقيقي.. في طريق عودتي إلى المنزل عرجت على صديق لي في متجر للإلكترونيات، واشترت كاميرا فيديو بكل ما في جيوبي من نقود.. إن كنت سأذهب لطبيب نفسي فلا بد أن أتأكد بنفسني أولاً مما يحدث لي.. لا بد أن أرى.

* * *

التصوير سيكلفك الضعف يا باشمهندس.

* * *

عدت إلى منزلي ووضعت الكاميرا فوق دولا ب في غرفة المعيشة.. تأكدت أنها ترى الغرفة بالكامل.. إن كان أحدهم يدخل من الباب

أثناء نومي سأراه، وإن كنت أنا أخرج دون أن أدري سأراني عندما أعود لوعيي.. أكلت بلا اكتراث، بضع لقيمات كانت عندي في الثلاجة متبقية من طعامي طوال الأسبوع.. صليت وقرأت القرآن كثيراً ليلتها، وعندما آويت إلى فراشي تأكدت أن الكاميرا مشحونة جيداً وأنها تسجل ما تراه.. آويت إلى فراشي دون نغاس وظللت أتقلب لساعتين دون نوم وعقلي لا يتوانى عن طرح الأسئلة.. انزلت بعد ساعة أخرى إلى نوم ملأته كوابيس عديدة أبطالها مفاتيح أشكالها غريبة، وبوابون متجهمي الوجوه وجيران يتظاهرون بالاهتمام، وحبال غليظة معلقة كمشانق.. ليلة مثالية لإنهاء يوم مثالي كيومي.

في الصباح التالي لدى استيقاظي قمت جرياً إلى غرفة المعيشة دون حتى أن أغسل وجهي.. التقتت الكاميرا من مكانها وأعدت استعراض ما سجّلته في الليلة السابقة بنظام تسريع الصورة.. هذا أنا وأنا أضع الكاميرا مكانها.. كل شيء يبدو طبيعياً.. باب الشقة المغلق لم يفتح طيلة الليل.. لا عفاريت أو أشخاص يتحركون في الإضاءة الخافتة.. وضعت الكاميرا مكانها وبدأت تمشيط الشقة بالكامل بحثاً عن أشياء لم أرها من قبل هنا أو هناك.. إمعاناً في تخيب أملي لم أجد شيئاً، لا أنكر شعوري بالفرحة أن كل شيء مر بسلام في الليلة السابقة، ولكن خالطه شعوراً بخيبة الأمل لم أعلم مصدره.. أنام وأصحو أذهب إلى عملي ثم أعود إلى المنزل.. أكل بعض الطعام ثم أصلي فروضي وأقرأ القرآن حتى يغلبني النعاس.. أضع كاميرا الفيديو في مكانها وأتفقدتها في الصباح التالي فلا أجد شيئاً يذكر.. ثلاثة أسابيع وأنا أواظب على هذا الروتين اليومي ولا شيء يحدث، حتى بدأت أقتنع أنه أيّاً كان هو، فقد كان حالة عارضة وانتهت.. قررت أن أمارس الحياة بشكل طبيعي وأن أنسى كل ما حدث.. الليلة ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة، والناس في الشوارع يصخبون ويحتفلون رغم البرد القارس.. وضعت الكاميرا كما

تعودت واندسست في الفراش تحت الأغطية الثقيلة أستعرض أحداث يومي المملة.. لا شيء يذكر سوى ما حدث هذا الصباح أثناء ذهابي إلى عملي أقود سيارتي المتهالكة وسط الزحام.. أقود بملل لم يكسره سوى توقف السيارة التي تتقدمني فجأة، مما دعاني إلى محاولة فاشلة لضغط الفرامل لم تنجح في إيقاف سيارتي في الوقت المناسب.. صدمت السيارة التي أمامي بقوة، فنزل منها شاب قوي البنيان ملامحه تنم عن غضب شديد.. رأى مكان الصدمة في سيارته فاشتاط غضبًا، وانطلق سيل من الشتائم من فمه.

- أيها الحمار الأعمى.. صدمت السيارة التي تساوي ثمنك وثمان أهلك.

لم يكن أمامي سوى أن أنزل لتهدئته ومحاولة التفاوض معه.

- ألا ترى من أمامك أيها الأعمى؟

- اهدأ وأنا سأصلحها لك على حسابي.. سليمة إن شاء الله.

- سليمة؟! تدمر السيارة وتقول سليمة يا حمار!

كان يحاول استفزازي بكل الطرق، يطوّح يديه ويتفنن في انتقاء السباب.. التفت الناس من حوله يحاولون تهدئته حتى لا يفتك بي، ولم يهتم أحدهم بوجودي من الأساس.. شعرت ساعتها بالهوان والضعف كما لم أشعر من قبل.. بركان غضب تصاعد في داخلي، ولوهلة أحسست أي أنفصل عن جسدي.. أن وعيي يتم إحلاله بواحد آخر.. أشعر به يتحكم في جسدي ولكن لا أقدر على منعه.. يتكلم بلساني قائلاً في عجرفة لم أعدها.

- لماذا تثور هكذا؟ وكأن «مامي» ليست قادرة على شراء أخرى من أجلك أيها الطفل الكبير.

أحاول السيطرة على نفسي ولكن كأني مجرد مشاهد مثل الآخرين محبوس داخل جسدي.

- جزاء لك على انعدام تربيته لن أعطيك شيئاً، وإن كنت رجلاً
تعالَ خذ حقلك بنفسك.

علامات استفهام خالطتها علامات تعجب ظهرت على وجوه الواقفين
جميعاً، فالشاب قادر على سحق جسدي الضعيف دون جهد، فكيف
بي أهينه وأستفزه لمواجهتي.. لحظات مرت في صمت جماعي قطعها
الشاب الذي اندفع الدم إلى وجهه، بأن تحرك إلى ناحيتي في سرعة يدفع
الناس من حوله.. طوح قبضته في الهواء مستهدفاً وجهي.. انفصل تماماً
عن جسدي وتظلم الرؤية تماماً للحظات، أعود بعدها إلى نفسي لأجد
الشاب ملقى على الأرض أمامي وجهه غارق في الدماء ويدي اللتان
استعدتُ التحكم بهما تكيلان له اللكمات تتفجر في أنفه وفمه وعينيه،
وفمي لا يتوقف عن السباب الثقيل للحظة.. رأت عيناى المشهد فهالني
ما رأيت.. توقفت في لحظة أنظر إلى يديّ المملختين بالدماء في غير
تصديق.. قمت إلى سيارتي هارباً من أعين الناس من حولي واختفيت
عن أنظارهم في لحظات.. لا أخفي ساعتها أن شعوري بالذنب الشديد
خالطه شعور بالزهو والانتصار.. أنا الذي لم أدخل عراقاً في حياتي، أنهيت
على هذا الشاب في لحظات.. تعجبت بداخلي من القوة التي أعطاها
لي الغضب والأدرينالين.. القوة التي لم أعلم حتى اليوم بوجودها داخلي
من الأساس.. نظرت إلى يديّ في تعجب مرة أخرى، ثم أغمضت عينيّ
وانزلقت إلى عالم النوم في نعومة وابتسامة انتصار تملأ وجهي.

* * *

هذا المنوم سيجعلك تنام كالأطفال.. إنه مستورد يا أستاذ.

* * *

أفتح عينيّ في هدوء وأتمطى في الفراش.. ما زلنا في الليل والظلام
يغلف الأركان، مما يعني المزيد من النوم لي.. أغلق عينيّ في خدر لذيذ
وأمد يدي لأشد الأغطيه على جسدي.. أقفز من الفراش كمن لدغه

ثعبان، فهذا ليس بفراشي وهذه ليست غرفة نومي.. أهز رأسي في شدة
أطرد بقايا النوم من عيني.

- أين أنا؟

صرخ السؤال بداخل عقلي.. أتفقد المكان من حولي.. غرفة رديئة
وباب شرفة نصف زجاجه مكسور، وتلفاز حديث موضوع على نضد في
الجهة المقابلة للغرفة، بدا شاداً وسط رداءة الغرفة.. في الإضاءة الخافتة
القادمة من خارج الشرفة تبينت شيئاً بجانب التلفاز.. اقتربت منه
فوجدته كاميرا الفيديو خاصتي موصلة بالتلفاز بجانبها ورقة كتب
عليها:

«شاهد واستمتع».

أضغط زر تشغيل الكاميرا كالمسحور لتظهر الصورة على التلفاز.. أرى
غرفة المعيشة خفيفة الإضاءة بمنزلي وأحدهم يقترب من الكاميرا.. تهتز
الصورة للحظات.. يحملها في مواجهة وجهه لأرى ملامحه واضحة.. هذا
أنا أبتسم بهدوء وأكلم الكاميرا.

- نعم هذا أنت، أو بمعنى أصح هو أنا، ولكن ما أنا وأنت إلا
وجهين لعملة واحدة.. ضدان يشتركان في نفس الجسد.

كانت علامات الاستفهام تتكاثر الآن على وجهي وكأنها يراني، استطرد:

- أنت لا تتذكر هذا لأنك لم تفعله في الأساس.. بل فعله جسدك
تقنياً ولكن بشخصي أنا، ولذلك أنت لا تذكر عنه شيئاً.. الموضوع صعب
ويحتاج إلى شرح كثير، واليوم أنا أشعر بحاجة شديدة إلى الاستمتاع
بالحياة.. هي ليلة رأس السنة وأنت نائم منذ التاسعة أيها الطفل،
ولكن الليلة أنا سأدعك تشاهد فقط، لأني أكره الاستثثار بكل المتعة
لنفسي.. إنه جسدك قبل كل شيء.

ضحكة شرسة تملأ وجهه، يتبعها بقوله:

- لنبدأ الصيد.

تسود الشاشة لثوانٍ مما يعني أنه أوقف التسجيل.. تعود الصورة من جديد وهو يضع الكاميرا في مواجهته في السيارة، قائلاً:

- يجب أن تشكرني على نظافة سيارتك، فمنذ أن صفت ذلك البواب الغبي وهو ينظف لنا السيارة يوميًا.. بعض الصفعات قد تكون مفيدة أحيانًا.

ضحك بجذل وهو يدير المفتاح لتهدر السيارة، وبدا عليه التأفف قائلاً:

- لا بد أن تغير سيارتك هذه في أقرب فرصة، فهي تسيء إلى صورتي.. لا أبالغ إذ أقول إن منظرها مهما كانت نظيفة يبعث على التقيؤ. يضرب السقف بقبضته وينهي جملته.
- قطعة خردة.

تسودّ الشاشة لثوانٍ أخرى ثم تعود الصورة، وهو لا يزال في السيارة يحرك المقود يمينًا ويسارًا قائلاً:

- والآن لنختار لك فتاة جميلة لهذه الليلة الباردة.

يحرك الكاميرا بعض الشيء لتُظهر جزءًا من وجهه والباب الجانبي.. يتحرك بمحاذاة الرصيف ببطء، يدور بعينه كأنها يبحث عن شخص معين.. تظهر في الصورة فتاة بالغت في وضع مساحيق التجميل على وجهها، حتى تبدو كعروس المولد.. ملابسها ضيقة تُظهر أكثر مما تخفي، تتحرك على الرصيف في وضع تتخيل أنه مغرٍ، ولكنه لم يزد لها إلا قبحًا.. يبتسم بوقاحة ويغمز بعينه قائلاً:

- هذه مناسبة جدًا.. ألا تظن؟

يمشي بمحاذاتها ويطلق بوق السيارة مرتين حتى تنتبه.. تتحرك متأودة إلى ناحية السيارة تنتظر حولها في حذر، ثم تميل لمواجهة إياه قائلة بطريقة حاولت أن تجعلها مغرية، فخرجت مملة روتينية:

- هل تريد أن تمتع نفسك الليلة يا باشمهندس؟

- هذا ما أرجوه الليلة.
- قبل أن أذهب معك.. الدفع مقدم والطعام عليك.
- اركبي وسأعطيك كل ما تريدين وزيادة.
- لمعت عينها في طمع، فهي تظن أنها وقعت على صيد ثمين.
- هل بيتك قريب من هنا؟
- بيتي ليس بقريب ولكنه أمان.. أمان جدًّا.
- وما هذا الشيء؟ هل تصورني؟
- هل يوجد مانع؟
- تراجعت في مقعدها باسترخاء قائلة بطريقة عملية:
- التصوير سيكلفك الضعف يا باشمهندس.
- كل ما تريدين هو لك.
- أظلمت الشاشة لشوانٍ لتعود الصورة من جديد تصور الفتاة تتحرك بصعوبة على أرض ترابية، تتجه إلى بيت وحيد وسط اللا شيء، لا شيء أمامه إلا عامود نور وحيد لم ينجح في تبديد الظلام المحيط.. تشد ملابسها على جسدها اتقاءً للبرد، قائلة:
- أرجو أن يكون طعامك دافئٍ وعندك الكثير من الأعطية.
- لا يرد عليها، بل يتقدمها إلى الباب ويخرج من جيبه المفتاح الغريب الذي وجدته منذ ثلاثة أسابيع، ويدسه في الباب فيفتح بصير شديد، فتشهق الفتاة قائلة:
- أهي مغارة علي بابا؟!
- ألم أخبرك بأن المكان أمان!
- وهل في هذه المغارة مياه ساخنة تصلح للاستحمام؟
- طبعًا.. الحمام من هناك.. اذهبي حتى أعدَّ لنا شيئًا لنأكله.
- تتأود أمام الكاميرا وتظلم الصورة من جديد.. تعود الصورة للكاميرا توضع على طاولة قذرة فيما يشبه المطبخ، وصوت قطرات ماء تصطم

بالأرض في الخلفية.. أراه يخرج شريط المنوم من جيبه ويطحن بضع حبات يضعها في العصير ويقبله.. يتكلم إلى الكاميرا:

- هذا المنوم لتهدئتها.. لا يوجد أحد على بعد كيلومترات، ولكنني لا أحب الصراخ.

وضع فمه أمام الكاميرا كأنه يُسرّ إليها:

- ربما لهذا أحببت زوجتك جدًّا، فبرغم كل ما فعلته أنا فيها لم تصرخ، وهذا ما جعلني أعلم أن هذا المنوم له مفعول السحر.

تظلم الشاشة من جديد لتعود الصورة في داخل الغرفة التي أجلس فيها، وهو يقدم لها العصير وهي تقوم بتمشيط شعرها.

- ولكنني أريد أن أكل أولاً؛ أنا جائعة.

- هذا حتى ينتهي إعداد الطعام.

تشربه غير عالمة بما بداخله دفعة واحدة، وابتسامة انتصار تملأ وجهه.. تخرج من حقيبتها موبايل صيني وتضغط على أزراره في سرعة..

تخرج منه موسيقى لأغنية شعبية بصوت عالٍ جدًّا تبدأ من بعدها في الاهتزاز.. تبدأ رقصة محمومة على تلك الموسيقى الرهيبة وهو يتراقص معها ويلامسها في جراحة.. تدوم الرقصة خمس دقائق، بدأت بعدها

قدمها في التخبط.. المنوم يأتي مفعوله ويبدأ في اللعب برأسها.. يتحرك إلى خارج الصورة ليظهر بعدها بثوانٍ يمسك بحبل غليظ في يديه.. يأتي من ورائها بكل هدوء وهي تتراقص مغمضة العينين، تحاول السيطرة

على وعيها الذي بدأ في التسرب.. يطبع قبلة حانية على خدها، ثم يلف الحبل على عنقها ويشده بكل قوته على مؤخر عنقها.. قلبي

يوشك على القفز من فمي وأنا أراه من أمامي يشد الحبل ويقهقه ضاحكًا، بينما الفتاة شبه المخدرة تشهق محاولة التنفس.. دقيقة كاملة

مرت والفتاة تتشنج بين يديه حتى تراخت أطرافها إلى الأبد.. ظل لدقيقة على وضعه ليتأكد من موتها، ثم ترك الحبل لتقع جثة هامدة

على الأرض.. ابتسم في استمتاع واقترب من الكاميرا وحملها في مواجهته
قائلاً:

- منعش، أليس كذلك؟ أنا الآن واقعك ولن أتركك إلا وقد محيت
نصفك الضعيف الخائب من الوجود.. لا تحاول الهروب لأنك ستجديني
مهما هربت، ففي النهاية أنا وأنت.. واحد.

تثاءب بعنف ثم أكمل بمرح:

- والآن أتركك لأنام قليلاً.. تصبح على خير.

أظلمت الشاشة للمرة النهائية وتركتني فاعراً فاهي في غير تصديق..
لدقائق وقفت كالتمثال بلا حراك ثم دبّت الحياة في قدمي.. تحركت
إلى خارج الغرفة لتصطدم قدمي بجسد كان لفتاة جائعة تظن أنها
مغرية.. دارت عيني في المكان وأخذتني قدمي إلى الحمام الذي لا يظل
دافئاً من أثر الماء الساخن.. نظرت في المرأة المشروخة أمامي لأرى
صوري التي انقسمت إلى قسمين.. أوشك أن أنفجر في البكاء، ولكن
دموعي تحجرت في عيني.. أقف في تحدٍ أنظر إليه في المرأة.. أحرك رأسي
يميناً ويساراً فيحركها مثلي.

- أنا الآن واقعك.

أسمعها كالفحيح في داخل عقلي.. لم أتردد كثيراً، فأنا قد اتخذت
قراراً لا رجعة فيه.. أمد يدي أمسك قطعة من زجاج المرأة المكسور
وأنظر إلى المرأة في شماتة ثم أمرها على أوردة معصمي.. أسمعها يئن
بداخلي يحاول أن يخرج ليوقفني، ولكنني أقطع عليه الطريق بأن أشق
معصمي الآخر.. هوة سوداء تكبر أمام عيني، تسحبني إلى داخلها في
نعومة.. أسقط على الأرض في بركة صنعتها دمائي.. على الأقل يقتلي
نفسي أضمن أنه لن يؤذي شخصاً آخر بعد الآن.. أبتسم للمرة الأخيرة
قائلاً بصوت خفيض:

- في النهاية أنا وأنت.. واحد.

obeikandi.com

دورية

ما نحتاجه الآن هو رسالة واضحة لأناس هذا البلد.. هذه الرسالة لا بد أن تُقرأ في كل جريدة، تسمع في كل راديو، تشاهد في كل محطة تليفزيونية.. أريد لهذا البلد أن يفهم أننا نقف على حافة النسيان.. أريد لكل رجل وامرأة وطفل أن يفهم كم قربنا من الفوضى.. أريد من الجميع أن يتذكر، لماذا يحتاجون إلينا.

V for Vendetta

obeikandi.com

- صدقني يا محمود، شباب هذه الأيام قليلو التربية.
يشد نفسًا من سيجارته وهو يغمض عينيه، ثم ينفثه في استمتاع.
- يسمون أنفسهم متمردين.. ثوار، ولكن حقيقة الأمر أنهم مجرد...
يبحث عن كلمة مناسبة للحظات ثم لا يجدها فيهبز كتفيه ورأسه..
ينفث الدخان مرة أخرى ويسترخي في مجلسه في السيارة.
- أهلم انشغلوا في جمع الأموال وتركوهم للتلفاز اللعين ليقوم
بتربيتهم.. يشاهدون الأفلام الأجنبية طوال الليل والنهار.. يعوجون
ألسنتهم ويتكلمون بالإنجليزية، ثم يبدؤون في التمرد على كل ما ليس
أجنبي من حولهم.. حرية وديموقراطية ومهلبية.. كلمات لا يعلمون
عنها شيئًا.

ينظر إلى عيني في عمق ويكمل:

- يريدون الفوضى يا محمود.. الفوضى.
أهز رأسي دون اقتناع حقيقي، فيكمل:
- أنا وأنت لسنا من هؤلاء.. لقد قام أهايلنا بتربيتنا جيدًا.. علمونا
كيف نعتمد على أنفسنا.. كيف نأتي بالقرش.. تعرضنا للصفعات
والركلات كل يوم، لهذا أصبحنا ما أصبحنا عليه اليوم.
نفس أخير من السيجارة قبل أن يلقيها، ليشعل غيرها في سرعة
ويستطرد:

- شباب هذه الأيام لم يحصلوا للأسف على القدر الكافي من
الصفعات والركلات، لهذا أصبحوا ما أصبحوا عليه.. كان يكفيننا أن نرى
المدرس يمشي في الشارع خارج المدرسة، فترتجف في الفراش لمدة أسبوع،
أما اليوم...

يرتسم الازدراء على وجهه.

- أما اليوم فيثورون على كل أشكال السلطة.. يظنون أنفسهم لا

يُقهرون، مع أنهم جربوا الحياة من دوننا لأسبوع فقط فلم يستطيعوا..
توسلوا إلينا وقبّلوا أيادينا لنعود لنحميهم من جديد.. صدقتي لو كنا
تركناهم أسبوعًا آخر لبدأ كل منهم في أكل الآخرين.

ينظر إلى الأفق في شroud.

- نحن القانون يا محمود.. دورنا وواجبنا المقدس أن نفرض النظام
مهما كان الثمن.. لا نحارب الجريمة بل نمنعها من الأساس.. إياك أن
تظن أن الرتب الكبيرة في المكاتب الفخمة هم من يقومون بالمهمة.
يبتسم من سذاجتي التي افترضتها وصدقها.

- بل نحن يا محمود.. رجال مثلي ومثلك تربوا جيدًا وطحتهم
الدنيا هم من يوفرون أهم ما يحتاجه كل إنسان.. الأمان.

يشير إلى الشارات على كتفه ويقول:

- هذا هو الأمان.. مجرد رؤيتهم لنا في الشوارع يدخل الأمان إلى
قلوبهم.. إحساسهم أننا موجودون من أجلهم، كالخراف الضالة لا
تطمئن إلا في وجود الراعي ورؤيتها لعصاه.. الزي الميري هو الأمان..
تذكر هذا جيدًا.

يبتسم في هدوء.

- أتعلم! عندما لا ألبس الميري أشعر بالعُري.. لو كان الأمر بيدي
لنمت واستيقظت به،

أبتسم من حديثه في تعجب فتتغير ملامحه للحظات.

- لن تفهم ما أقوله الآن، فأنت ما زلت جديدًا، ولكن تذكره جيدًا،
فسيأتي اليوم الذي تفهم كلامي فيه.

يسكت فجأة كما بدأ الكلام، فأنظر إلى الأمام في شroud.. سمعت
كثيرًا عن بدوي ولكن لم أقابله وجهًا لوجه إلا اليوم.. الأمين بدوي
أعجوبة قسم الطالبية، الكل يتكلم عنه، إما يتناقلون أخباره ونوادره
وإما يتهامون عن فحشه وعنفه.. لم أقابل أحدًا منذ بدأ تعييني في

القسم إلا ويعرفه، ولكنني لم أقابله وجهاً لوجه إلا اليوم بصدفة عجيبة.. العسكري سائق الدورية الراكبة الذي يعمل معه جاءت به وعكة صحية، يقال إنها تسمم من طعام فاسد، واللييلة هي لييلة رأس السنة وكل الدوريات في الشوارع ولا سائقين ليحلوا محله.. وفي أقل من دقائق وجدتهم يسلمونني مفاتيح السيارة لأحل محل سائقها المريض هذه اللييلة.. أحدهم قال لأحدهم إن له خبرة جيدة في القيادة، إذ عملت في قيادة سيارة أجرة قبل أن ألتحق بالشرطة.. وصل الكلام لبدوي فاستدعاني.. نظر إليّ من فوقي إلى تحتي، ودون كلمة واحدة رفع يده بمفاتيح السيارة.

- متى يعود الباشا؟

تفوهت بالعبرة محاولاً كسر جدار الصمت فضحك حتى سعل.

- الباشا لن يعود.. الباشا الآن نائم في فراشه بجوار المدام.

في لهجة ساخرة أكمل.

- هل كنت تظن أنه عندما قال أريد أن أمر على البيت لأني نسيت

شيئاً، أنه قد نسي شيئاً بالفعل؟ هل تظن أن الباشا سيظل معنا في

هذا البرد القارس يدور في الشوارع حتى الصباح؟

ابتلعت سخريته وأنا أحاول تفادي ميكروباص لعين يحاول المرور في

الغالب من فوق سيارتنا.. رأيت جدارية عظيمة على جانب الطريق،

فيها أربعة حروف إنجليزية تتكرر بلا انقطاع وتلتف حول نفسها..

قرأتها بعيني.. A.C.A.B.. لا أعلم عن الإنجليزية إلا حروفها وبعض

الكلمات العالقة في ذهني من أيام الدراسة.

- هل تعرف ما معنى هذه الحروف؟

نظر في ازدراء إلى الجدارية.

- أراهن أن من كتبها لا يعلم معناها من الأساس.. مجرد تقليد

أعمى لبعض الشعارات الأجنبية الصهيونية.. محاولات للفذلكة لم ينتج

عنها إلا تشويه الشوارع بهذا الشكل.

شرد ببصره وابتسم كأنها يتذكر.

- لقد أمسكت بواحد من هؤلاء الفتية الذين يرسمون تلك الأشياء في الشوارع ذات يوم.. جعلته يكره اليوم الذي ولد فيه.. لم أتركه إلا وقد خلع كل ملابسه ودهنت جسده بالكامل بالطلاء.. كلما تذكرت منظره وهو يجري في الشارع عاريًا لا أستطيع منع نفسي من الضحك. حاولت أن أبتسم مجاملًا، فخرجت ابتسامتي باهتة مرتعشة، ولكنه لم يهتم، فأكمل:

- أراهن أنه يخاف الآن أن يقترب من علبة طلاء، ولو حتى لمقاة في الشارع.

لمح التوتر يسري في ملامح وجهي، فاسترخى في جلسته بجانبه وهو يكمل :

- لا تتوتر هكذا، فكل ما فعلته أي شددت أذنه.. لقد قومتها يا محمود، وهذه هي وظيفتنا الحقيقية.

سكت للحظات وكأنه يفكر، ثم قال:

- والآن ادخل الشارع المقبل.

أنفذ أوامره في صمت.. نتحرك من شارع إلى آخر وسط زحام وصخب رأس السنة.. أرى نظرات شتى في أعين الناس من حولي، إذ تمر سيارتنا الزرقاء بشكلها المميز من أمامهم.. أرى نظرات باسمه مطمئنة وأخرى ساخطة غاضبة.. نظرات زجاجية متراخية لا ترانا وأخرى ثاقبة كأنها تريد أن تحرقنا.. أنظر بجانب بصري إلى بدوي فأراه أرجع رأسه إلى الوراء مغمضًا عينيه في استرخاء.

- الشارع المقبل إلى اليسار.

يقولها وما زال جفناه مغمضين، يحفظ الطريق، فلا يحتاج حتى أن يفتح عينيه.

- الآن توقف إلى جانب الطريق.

يقولها وهو يفتح عينيه في تؤدة، فأمتثل لأوامره.. يشير بيديه إلى ما حوله قائلاً:

- والآن ننتظر.

- ننتظر ماذا؟

- كل في وقته؛ لا تتعجل.

يبتسم مكملًا:

- أنت ورزقك، فالليلة ما زالت بكرًا.

مرت نصف الساعة في صمت لا يقطعها إلا صوت أنفاس الأمين بدوي المحملة بدخان سجاثره.. ينظر إلى الطريق في تمعن كأنها ينتظر أحدهم.. أرى سيارة فارهة تتوقف إلى جانب الطريق من بعيد.. يتحرك أحدهم من على الرصيف ناحية السيارة في حذر، ناظرًا حوله في كل الاتجاهات.. لم تتناسب هيئته بلحيته نصف النامية وملابسه المهترئة مع السيارة التي تفوح منها رائحة الثراء الفاحش.. تمتد يده إلى جيبه ويخرج لفافة يسلمها إلى قائد السيارة، ويستلم منه نقودًا يضعها في جيبه وهو يتلفت حوله مرة أخرى للاطمئنان.. يرى بدوي نظراتي فيتكلم موضحًا المشهد:

- هذا صلاح، أقذر موزع مخدرات قد تعرفه في حياتك.. يتنافس

هو وبضاعته في السوء، لا تعلم أيًا منهما أسوأ من الآخر.

أرى السيارة الفارهة تتحرك وتبتعد، وصلاح يبتسم لسائقها في مداهنة.

- ألن نتحرك وراء السيارة؟

أسأله في دهشه، فيجيب بابتسامة:

- لا طبعًا هل جنت؟! ألم تر شكل السيارة؟

رأى اندهاشي وعلامات التعجب التي بدأت في التراقص على وجهي،

فاستطرد مفسراً:

- السيارة الفارهة تعني أشخاصاً أثرياء.. شخص ثرى يعني له علاقة شبه مؤكدة برتبة كبيرة على الأقل، إن لم يكن أكثر من رتبة.. رتبة كبيرة تعني خراب بيتي وبيتك، لأننا قمنا بتعكير مزاج الباشا الصغير قائد السيارة، أو على أقل تقدير توبيخ شديد من الباشا المأمور لي، وفي النهاية سيعود الباشا الصغير إلى البيت وسيدخن قطعة الحشيش الرديئة باستمتاع.. يجب أن تعلم أن هناك حدوداً لا نتعداها، ليس خوفاً لا سمح الله، فأنا لا أخاف إلا من خالقي، ولكنها مجاملات لا بد منها.

بدا السخط على ملامحي فأكمل في لهجة حنون:

- هذه أشياء لا يعلمونها لك في المعهد، ولكن يجب أن تتعلمها إذا أردت أن تكون شيئاً.

- ألن ندهم صلاح هذا على الأقل؟!

- صلاح! إنه مجرد وغد جائع لا أكثر.. سمكة شديدة الصغر في محيط لا متناهي لا يجب أن تعطيهما أي اهتمام.. أقبض عليه اليوم وسيأتي غداً عشرة أشخاص يحلون محله لا نعلم عنهم شيئاً.. ربما أخطر منه بكثير.

يسكت لوهلة، ثم يكمل:

- ثم إنه مفيد جداً لنقبض عليه.

- مفيد فيم؟! في بيع المخدرات؟!

- في المعلومات أيها الأحمق.. إذا أردت أن تكون شيئاً في هذه الشوارع لا بد أن تعلم كل شيء عن كل شخص.. صلاح جرد بائس ولكن معلوماته قيمة للغاية تسمح له بأن تجعلني أغض بصري عنه لبعض الوقت، طالما كان تحت السيطرة، أما إذا خرج عن سيطرتك ورأيت أنه يكبر أكثر من اللازم لا بد أن تقضي عليه على الفور.. هو يعلم هذا ويعلم

أنني أعلم هذا، لذا لا يحاول أن يتخطاني.

يشير بإصبعه إلى فتاة بالغت في وضع مساحيق التجميل على وجهها حتى تبدو كعروس المولود.. ملابسها ضيقة تظهر أكثر مما تخفي، تتحرك على الرصيف في وضع تتخيل أنه مغرٍ، ولكنه لم يزد لها إلا قبْحًا، قائلاً:

- انظر إلى هناك.. هذه سميرة.. فتاة فقيرة جائعة مثلها مثل صلاح، ساعدتني الأسبوع الماضي في القبض على شبكة دعارة، لذلك أتركها تلعب الليلة ولا أضعها في الحجز مع مثيلاتها.

أرى سيارة تتوقف بجانب سميرة، ويطلق سائقها البوق مرتين فتتحرك ناحيته.. أحاول الكلام.

- ولكن هذا خطأ.

- نحن القانون يا محمود.. نحن نعرّف الخطأ والصواب، بما يضمن الصالح العام.. صلاح لم يضر أحدًا إلا بمخدراته القذرة التي قد تتسبب في تلف مخ من يشترونها منه بإرادتهم.. سميرة تحاول فقط أن توفر وجبة ساخنة لها ولعائلتها.. هم مجرد أعين وأيادٍ لك يجب أن تأخذ منهم أكثر مما تعطيهم مئة مرة.. إذا انتهى دورهم ألقهم في الحجز مثل غيرهم.

لم يترك لي الفرصة في التفكير في كلامه، فأكمل أمرًا:

- والآن تحرك بالسيارة، فلن نقف هنا طيلة الليل.

أفكاري مبعثرة داخل عقلي كالدخان، كلما أطبقت يداي عليه تبعث من حولها ليتشكل في ألف شكل آخر.. أفكر في كلماته.. في منطقته الملتوي.. أتذكر أول مرة رأيتني أمي بالميري فانطلقت منها الزغاريد تملأ بيتنا الحزين.. أقارن بين كل ما رأيته وتعلمته داخل القسم، وما تعلمته الليلة مع الأمين بدوي.. لم يقطع سريان أفكاري إلا صوت هاتف بدوي المحمول.

- أهلاً يا باشا.

يستمتع باهتمام إلى ما يقال له من الطرف الآخر.

- اطمئن يا باشا؛ كل شيء على أحسن حال.

ينظر إليّ بطرف عينه إذ يستمع إلى محدّثه.

- لن يحدث ما يعكر صفو سيادتك، لن يحدث هذا طالما أتنفس

يا باشا.

- مع ألف سلامة يا باشا.

يغلق هاتفه ثم يتكلم وهو ينظر إلى الطريق قائلاً:

- إنه الباشا يطمئن أن كل شيء على ما يرام.

ينظر إلى ناحيتي مُكَمِّلاً في لهجة شديدة:

- أليس كل شيء على ما يرام؟!

أومئ برأسي في بطاء وأنا أحاول ألا أنظر إليه، فينظر أمامه من

جديد قائلاً:

- جيد.. هذا ما ظننت.

نمر على شارع طغى الظلام على معظمه، توقفت فيه سيارة تنبث

منها أصوات أغنية أجنبية بصوت عالٍ.. يقول بدوي بلهجة ظافرة:

- توقف هنا؛ يبدو هذا صيداً جيداً.

يترجل ويتحرك ناحية السيارة المتوقفة في بطاء وخيلاء.. أشاهده من

مكاني وهو يقترب من نافذة السائق، ويطلق زجاجها بشدة.. أرى على

الضوء الضعيف قائد السيارة الشاب يحاول إخفاء شيء ما، الأمر الذي

جعل الأمين بدوي يفتح الباب بسرعة، ويجرجه إلى الخارج في عنف،

ليرميه على الأرض بجانب السيارة.. يتأوه الشاب بصوت مسموع فيتركه

بدوي ويتحرك إلى جانب السيارة الآخر، الذي أرى فيه الآن شاباً آخر

يجلس متجمداً في مكانه.. يفتح الباب ويجرر الآخر بجوار صديقه

دون مقاومة تُذكر.. أسمعهم يقول بصوت أمر لهما:

- قم وقفاً أنت وهو.

يمتثلان لأمره ويقفان بصعوبة، مما جعلني أقدر أنهما مخموران.. يتجه إلى السيارة ونظره لا يفارقهما.. يجلس بالداخل للحظات، يخرج بعدها وفي يده زجاجة كبيرة تبدو كزجاجات الخمر التي كنت أراها في الأفلام مع كيس أسود كبير في اليد الأخرى.. ينظر إلى وجهيهما في ازدراء أمرًا:

- أمامي إلى البوكس.. أنا أعلم أناسًا في الحجز سيرحبون بكم جدًّا. يقودهما إلى سيارتنا ووجهيهما في الأرض.. يسلمني الزجاجة الكبيرة وأنا جالس في مكاني ويحتفظ بالكيس معه.. يغمز لي بعينه ويبتسم ابتسامة أثارت مخاوفي، فترجلت لأشاهد ما سيفعل.. يقف أمامهما في خيلاء ويده على سلاحه.

- ألا تشعر بالخزي من نفسيكما؟!

يحاول أحدهما تجميع الكلمات قائلاً بصوت متخبط.

- يا باشا هذه أول وآخر مرة.

يلطمه الأمين بدوي على وجهه، فيقع الشاب على الأرض، قائلاً

بصوت جهوري:

- لا تتكلم دون أن أطلب منك الكلام.. أعطوني بطاقات هويتكم ثم

أفرغوا ما في جيوبكم على الأرض.. كل ما في جيوبكم.

يمتثلان لأمره فيخرجان بطاقتيهما ويعطيانهما له، فينظر إلى البيانات

في اهتمام.. يكلمهما، بينما يضعان هواتفهما على الأرض بجانب حفنة

من الأموال خرجت من جيوبهما.

- طالبان في جامعة محترمة وتسكران في الطريق مثل المتشردين..

أثظنان أنفسكما أصبحتما رجالاً لأن الشعر بدأ في الظهور تحت

أنوفكما؟!

ينظر إلى الأرض فيرى المال والهواتف، فيكلمهم:

- هل هذا هو كل ما في جيوبكما أم سأضطر إلى تفتيشكما بنفسي؟

يهزان رأسيهما في سرعة بالنفي خشية بطشه بهما، ويقولان في صوت واحد:

- هذا كل ما معنا يا باشا.

ينظر ناحيتي أمراً:

- تعال يا محمود، خذ هذه الأشياء وضمها إلى الحرز.

لم أفهم عن أي حرز يتكلم، ولكنني أسرعرت ألملم الأشياء المتراسة على الأرض، بينما أتعاشى النظر إلى أي من الواقفين.. أسمعته يتكلم في ازدراء:

- اسمع منك له، أنا أستطيع القضاء على مستقبلكما الآن، لكن أنتما شكلكما أولاد ناس.

يلمع الأمل في عينيها، فيستطرد:

- لكن حتى أستطيع إطلاق سراحكما لا بد أن يخفى هذا الحرز.

يشير بيده إلى الكيس الملقى على الأرض الذي أخرجه من سيارتهم ويتحرك إلى الورا خطوات.. يقترب أحدهم من الكيس ويخرج زجاجة صغيرة ذات غلاف أسود لم أميزها.. ينظر إلى الأمين بدوي في تساؤل، فيومئ له برأسه في بطاء.. يفتح الزجاجة بسرعة ويفرغ نصفها في فمه دفعة واحدة وما زالت عيناه على وجه بدوي.. أنهى الزجاجة في أقل من دقيقة، فأشار له بدوي بيده ما معناه أن أسرع.. يُخرج زجاجتين أخريين من نفس النوع وينادي صاحبه في عصبية:

- تعال ساعدي يا حمار.. هل تريد أن تقضي ليلتك في الحبس؟

يشربان ويشربان.. عشر زجاجات أفرغها في فميهما في دقائق قليلة، والأمين بدوي يشاهدهما باستمتاع ويدخن سيجارته ببطء.. في النهاية لم تستطع معدة الأول أن تتحمل، فأمسك بطنه وأفرغ معدته على الأسفلت، ليتبعه الثاني بعدها بلحظات، ليقعا كلاهما في النهاية في بركة من القيء والزجاجات الفارغة ترسم نصف دائرة من حولهما.. يمت

بدوي شفتيه ويلقي ما تبقى من السجارة على الأرض ويقترب من جسديهما، قائلاً من بين أسنانه:

- تذكرنا هذا المرة القادمة التي تفكران فيها في شراء الخمر.. هذه المره سأسامحكما ولكن إذا رأيت وجهيكما مرة أخرى لن أرحمكما. يلقي البطاقات على وجهيهما اللذين شابهما الإعياء، في ازدراء.. ينظر إلى ناحيتي حيث وقفت بعينين مفتوحتين على آخرهما دون حراك، قائلاً:

- هيا فلن نبيت ليلتنا بجانبهما.

* * *

- إذن.. ما رأيك؟

منظر الشابين لم يفارق خيالي بعد.. لم أجد إجابة، فقلت الشيء الوحيد الذي فكرت فيه:

- لا أعرف.

- لا تعرف ماذا؟ لقد أسديت إليهما خدمة.

- لقد دمرتهما.

قال في نفاذ صبر:

- لقد أعطيتهما ذكرى مرعبة عن الخمر لن ينساها أبداً.. ثم أليس هذا أفضل من أن أذهب بهما إلى القسم ويُدَمَّر مستقبلهما؟ لا بد أن تشكرني إذ لم أفعل هذا.

- لقد أخذت أموالهما وهواتفهما.

اتسعت ابتسامته مجيئاً:

- لا لقد أخذنا أنا وأنت أموالهما وهواتفهما.. ثم يا أخي أليس لكل علاج ثمن؟ اعتبر أنهما ذهبا إلى الطبيب ودفعا ثمن العلاج.. لقد شفيتهم من إدمان الخمر إلى الأبد.

لم أجد ردًا مناسبًا، فساد الصمت للحظات، أنقذنا منه صوت جهاز

الإرسال:

- على جميع الوحدات القريبة من السيرك القومي الاستجابة.
- تخيلت أنه سيرد عليهم، ولكنه جلس دون أن يفعل شيئًا.
- ألن نرد عليهم؟! نحن قريبان جدًّا من هناك!
- لا.. دعك منهم.. ليس لي بال للسيرك اليوم.
- ربما شيء مهم.
- أشار إلى رجل وامرأه ترتدي فستانًا أحمر فاضحًا، يخرجان من أحد البيوت، متجهمين يقصدان سيارة مركونة إلى جانب الطريق، وقال:
- لا.. هذا يا صديقي هو الشيء المهم.
- شاهدتهما يدلغان إلى سيارتهما في سرعة دون كلمة واحدة، وينطلقان أمامنا، وسمعت بدوي يأمرني:
- وراءهما وإياك أن يضيعا منك.
- فعلت مثلما قال، وتحركت وراءهما من شارع إلى آخر لدقائق، حتى قال:
- والآن سر بجانبهما.
- سرت بمحاذاتهما فرأيت بدوي يتفقدهما بنظرة الصياد الخبير..
- تجمدت نظراته للحظات على المرأة ليبتلع ريقه بصوت مسموع.. أشار للرجل قائد السيارة أن يتوقف، فارتسم التساؤل على وجهه، وسمعت المرأة تقول له:
- توقف لنرى ماذا يريدان.
- نفس المشية الخيلاء.. نفس النقرة على الزجاج.. نفس الابتسامة القبيحة، زادت عليها نظرة شهوانية خاطفة إلى المرأة.. يسألهما الاطلاع على رخصة السائق ورخصة السيارة.. ينظر إليهما باهتمام زائف..
- يطلب منهما النزول من السيارة.
- خير يا باشا!

- هل تعرف هذه السيدة؟

- طبعًا إنها زوجتي.. هل تريد رؤية قسيمة الزواج؟!

- لا أنا أصدقك.. ولكن عندي تساؤل.

- تفضل.

- ألا يوجد عندك بعض الرجولة كي تمنع امرأتك أن تخرج بهذا

الشكل؟!

بهت الرجل الذي لم يتوقع هذا السؤال، فنظر إلى بدوي في غضب

متسائلًا:

- ماذا تقول؟

- قلت ما سمعته.

- كيف تجرؤ؟

اتسعت ابتسامة بدوي ورأيت التماعًا غريبًا في عينيه.

- كيف أجرؤ؟! كيف أجرؤ؟!

ظل يردد الكلمة وابتسامته تتسع أكثر وأكثر، لبيغت الرجل فجأة

بركلة في معدته يتبعها بقبضته التي وجهها إلى فمه.. تحولت لهجته إلى

الغضب وهو ما زال يكرر نفس السؤال.. يقع الرجل على الأرض فينهال

على جسده ركلاً في معدته وصدرة.

- سأريك الآن كيف أجرؤ أيها المخنث.

نزلت المرأة من السيارة وتبدأ في الصراخ فينهياها، قائلاً:

- اخري أيتها العاهرة وإلا قتلت زوجك أمامك الآن.

احتبس صراخها في حلقها ووقفت مكانها تشاهد ما يحدث،

والدموع تغرق وجهها.

- سأريك كيف أجرؤ أنت وزوجتك أيتها الكلاب.

كنت أشاهد ما يحدث مشدوهاً، لا أعلم هل أظل مكاني أم أذهب

إلى ناحيتهم لأوقفه قبل أن يقتل الرجل.. بدوي يلهث.. الرجل يتأوه

والمرأة ترجوه أن يتوقف.. يداي تجمدتا على مقود السيارة لا تريدان أن تتحركا.. رأيت بدوي يرفع عقيرته ويصرخ وسط لهائه:

- محمود.. أحضر الزجاجة الحرز من عندك.

تحررت يداي مع كلماته، فهولت إلى ناحيته ومعني الزجاجة التي طلبها.. أمسكها بكلتا يديه.. فتح غطاءها وسكب نصفها على ملابس الرجل ليغلقها مرة أخرى.. نظر ناحية الرجل والشرر يتطاير من عينيه:

- هذا محضر قيادة وأنت مخمور.

أشار إلى زوجة الرجل مكملًا:

- أما هذا ففعل فاضح في الطريق العام.

دار بعينه بين الرجل والمرأة سائلًا:

- هل تريدان أن نجعلها إيجارًا في المخدرات؟ حيازة سلاح بدون

ترخيص؟ أي شيء تريدان.

- لا أرجوك سنفعل أي شيء تريد.. فقط اتركنا نذهب.

صرخت المرأة من وسط دموعها التي اختلطت بأصباغ وجهها، ليقف بدوي منتفشًا بيننا كأنه عملاق قادر على سحق ضحاياه في لحظة بينما يتوسلون إليه أن يرحمهم.. وقف للحظات متفكرًا:

- تعالي إلى هنا وقبلي يدي، ربما ساعتها أفكر في ترككما.

هولت المرأة ونزلت تقبل يد الأمين بدوي فوق جسد زوجها

الهامد، بينما يحاول منعها بغمغمات متأوهة.

- هل ترى هذا أيها المخنث؟ زوجتك تحب الرجال الحق مثلي.

أخرج سلاحه من جرابه وأعطاه لي أمرًا:

- وجه السلاح إلى هذا الكلب، وإن فكر في الحراك أطلق عليه النار.

أخذت سلاحه بيد مرتعشة وفعلت مثلما قال.. لأول مرة في حياتي

أشعر أنني مسلوب الإرادة هكذا.. يمسك بدوي بالمرأة في عنف وينظر

إليها نظرات تفيض بالشهوة.

- والآن لنفتشك يا جميلة.

يوقفها قبالة السيارة ويتشمم شعرها مغمضاً عينيه.. المرأة تقف في استسلام تنظر إلى زوجها دامعة، بينما بدوي يمرر أصابعه على كتفيها.. يدي ما زالت ترتعش ممسكة بسلاح بدوي.. أنقل نظري بين المرأة والرجل الذي يجاهد للوقوف على قدميه دون نجاح حقيقي.. كلمات أبي الأخيرة بينما هو على فراش موته تتقاذف إلى مسامعي.. نظر إلى وجهي بشدة كأنما ينظر إلى داخل روحي قائلاً:

- إياك والظلم يا بُني.. إياك ودعوة المظلوم.

كأنما اخترقت بصيرته الحجب ليرى هذا اليوم ويحذّرني منه.. يضغط بدوي بجسده على المرأة المستسلمة، ويهمس في أذنها بكلمات لم أسمعها.. ينجح الرجل في القيام أخيراً متشبثاً بباب السيارة المفتوح.. بدوي مغمض العينين ثقيل الأنفاس، بينما ينطلق بركان الغضب في جسد الرجل الذي يغطي الدم وجهه.. يرى امرأته تنتهك أمام عينيه وأرى في عينيه النية للفتك ببدوي.. تتداخل كلمات أبي مع بدوي في عقلي.

- نحن نعرّف الخطأ والصواب، بما يضمن الصالح العام.. نحن القانون.

الرجل الغاضب يطلق صيحة عظيمة لم يأبه لها بدوي.. فجأة أصبح القرار واضحاً جلياً في عقلي.. اختفت ارتعاشة يدي.. وجهت السلاح في ثقة إلى هدفي وعصرت الزناد لتنتطلق رصاصة غطى صوتها على كل الأصوات.

* * *

- ماذا تريد يا بدوي؟

- سمعت الصوت الناعس على الطرف الآخر.

- أنا لست بدوي.. أنا محمود السائق يا باشا أتكلم من تليفونه.

- ماذا حدث؟ أين بدوي؟

- لقد قتلت الأمين بدوي وسأذهب لتسليم نفسي الآن في القسم.

أغلقت الخط دون أن أسمع رد الباشا.. نظرت إلى جثة الأمين بدوي وبركة الدماء التي أحاطت به، للمرة الأخيرة، وانطلقت بالسيارة، بينما كلماته تتردد في ثنايا عقلي:

«نحن القانون يا محمود.. دورنا وواجبنا المقدس أن نفرض النظام

مهما كان الثمن».

بلياتشو

يذهب رجل إلى الطبيب يشكو من الاكتئاب.. يشكو الحياة القاسية المؤلمة.. يقول إنه يشعر بالوحدة أمام عالم مليء بالتهديدات.. ينصحه الطبيب أن يذهب إلى السيرك فالمرح العظيم بالياتشي موجود في المدينة هذه الليلة، وهذا قد يساعده.. ينفجر الرجل في البكاء، وعندما يسأله الطبيب عن سبب بكائه قال له من وسط دموعه.. أنا بالياتشي.

Watchmen

obeikandi.com

- عشر دقائق على بدء العرض.

سمعتها من مدير السيرك الذي يتحرك بعصبية بين الواقفين، فلم أعره انتباهًا.. يأتي كل يوم في نفس الموعد ليزف إلينا النبأ العاجل الذي حفظه الجميع.. العرض سيبدأ بعد عشر دقائق.. أنظر إلى وجهي الذي افتقدته في المرأة التي ثبتت إليها مصابيح من كل الجوانب.. امرأة متسخة قديمة قدم السيرك نفسه، تخفي أكثر مما تظهر.. أمرر أصابعي على سطح المرأة بحنان حول حواف انعكاس وجهي كأنما ألامسني.

* * *

- ابعد عن المرأة يا علي؛ لا أستطيع الرؤية منك.

- ولكن يا أبي أنا أريد أن أرى ما بداخل المرأة.

يبتسم فتتسع الضحكة المرسومة على وجهه بالأصباغ ويرفعني إلى الأعلى قائلاً:

- ما بالداخل هو بالضبط ما بالخارج.. اذهب وائتني بالكُرات

الملونة من الصندوق، لا أريد أن أتأخر بسببك مرة أخرى.

* * *

أطخ الفرشاة باللون الأحمر لأرسم حدود الابتسامة الصناعية على وجهي وفوق فمي.. أمرر الفرشاة المهترئة على وجهي، فأشعر كأن ثعبانًا يتحرك فوق جلدي.. أرسم ضحكة واسعة تضيء سعادة زائفة على وجهي الكئيب.

* * *

- لماذا ترسم على وجهك هذه الضحكة يا أبي؟

- لأنها تُدخل السعادة على نفوس من يرونها يا علي.

- لكني أحب ابتسامتك الطبيعية أكثر، فهذه المرسومة تخيفني.
- ينظر إلى وجهي في حيرة وهو يللمم أدواته.
- لكن الناس يحبون هذه أكثر يا علي.

* * *

أضع الأنف الأحمر الكبير فوق أنفي الدقيق وأتأكد أنه متمسك جيداً بوجهي.. أضع شعري المستعار ذا الألوان الزاهية وأتأكد من أن شعري الحقيقي لا يظهر.. يسبب لي الحكمة كلما وضعته، ولكن لا يهم، فلن يزعجني ذلك الآن.. ألملمم أدواتي وأنا ألقى نظرة أخيرة على وجهي لأرى إن فاتتني أي تفاصيل.. يمر منير مصارع الأسود وهو يبتسم لأميرة الراقصة على الجبال ابتسامة قالت الكثير، بينما تنظر هي إليه في افتتاحان.

* * *

- لكني لا أريد أن أكون بلياتشو!
- يمسكني أبي بعصبية حتى لا أحرك وجهي فيفسد مكياجتي، قائلاً:
- وماذا تريد أن تصبح يا ابن البلياتشو؟!
- أريد أن أصارع الأسود.
- يضحك حتى يسعل ويقول من وسط ضحكاته:
- اسمع جيداً.. أنت بلياتشو أباً عن جد، ولن تكون غير ذلك.
- لكني لا أحب ضحكات الناس على شكلي.
- هذا عملنا.. نقع على مؤخراتنا لنتزع الضحكات من أفواههم.. لقد خلقنا ليضحك علينا الناس.
- يكمل تلطيخ وجهي بالأصباغ وهو ما زال يضحك، مردداً في استهزاء:
- مصارع أسود.

* * *

أرتدي ملابس الملونة وأحكم غلقها فوق جسدي النحيل.. أضع

يديّ داخل القفازين اللذين ورثتهما عن أبي.. رغم اهترائهما فقد أردت شيئاً من رائحته معي.. أردت أن أشعر أنه يمسك بيديّ كما فعل مراراً في صغري.. أن يقودني إلى وجهتي.. وقعت عيناى على الصندوق القديم المفتوح في ركن الحجرة.. هو كل إرثي من والدي بعدما مات.. أنظر إلى الزجاجة العتيقة التي ربضت في جانب الصندوق على استحياء كأنها تتحاشاني.

* * *

- خذ الزجاجة يا علي واذهب إلى عمك بيومي وأبلغه أن يملأها إلى آخرها هذه المرة.

- لكني لا أحب الذهاب إلى هناك يا أبي، فأنا أخاف من عم بيومي. يحاول تمالك أعصابه ويجزّ على أسنانه.

- هيا يا عليّ. وعندما يسألك عن المال أبلغه أنني سأحاسبه وأدفع له عندما أراه.

- لكنه نهري المرة السابقة، وقال إن لم يكن معك مال فلا تأتِ إلى هنا مرة أخرى.

يرتسم السخط على وجهه ويتمتم بصوت خفيض غاضب:

- هذا النصاب مصاص الدماء! ألم يعد عند الناس صبر؟! ألا يكفيه أنني أتحمل خمره المغشوش الذي سيقتلني قبل أواني.. عليه اللعنة!

* * *

أتحرك أجرجر خطواتي في الكواليس.. أنظر إلى الجميع لعلي أجد من يخيّب أمني ويبادلني النظرات.. أن يشعر أحدهم حتى بوجودي.. أحياناً أشعر كشبح يسير وسط الأحياء يراهم ولا يرونه.. يرون من خلالي كأني شفاف بلا وزن.. أتعمد أن أصطدم بأحدهم بين الحين والآخر لمجرد أن أثبت لنفسي أنني ما زلت أنتمي إلى عالم الأحياء.

* * *

- ما هذا الذي في يدك يا علي؟

- لا شيء، إنها مجرد زهرة وجدتها في الطريق وأنا قادم من المدرسة.
ينظر إليّ أبي في تشكك.. ينظر إليّ تلك النظرة التي تسبر أغوار روحي ذاتها.. يلاحظ توتري.

- قل الحق يا علي.. أنت لم تجد هذه الزهرة.. أنت إما أخذتها من إحداهن أو تخطط لإعطائها لإحداهن.

أتوقف للحظات أحاول تكوين رد مقنع.. اخترت أن أمّادى في كذبتني، فقلت وقد بدأت كفاي في التعرق كعادتي عندما أتوتر:

- لا، لقد وجدتها في الشارع.

- إذن ضعها تحت قدمك ودس عليها، إذا كنت فعلاً وجدتها كما تقول.

أنظر إليه في سخط مكتوم للحظات.. أرميها أمامي وقلبي يتقطع.. أرفع قدمي وأنا أنظر إلى عينيه فيسبقني إليها، يدوس عليها بكل غلٍ حتى ساواها بالأرض.

* * *

لم أعرف الحب يوماً إلا في بعض المحاولات الصبانية، تحطمت دائماً على الجدار الفولاذي الذي فرضه أبي من حولي.. كان يمنعني من أي محاولة للاتصال بالنساء.. قاومته كثيراً في البداية، ولكنني استسلمت بعد عدة محاولات فاشلة لأمتنع عن حتى محاولة المحاولة.. حتى بعدما تركني ومات إثر تليّف كبده، ظل جداره مُقَامًا من حولي.. يحبسني.

* * *

- أعطني الزجاجة من عندك يا علي.

يقولها بلسان التّوى إثر تشبّع جسده بالخمير الرخيص.. أنظر إليه مشفقاً.

- ألا يكفي ما شربته اليوم يا أبي؟

- لا.. لا يكفي.. أنا أستطيع أن أشرب ماء البحر دون أن أتأثر.
يسكت للحظات ثم يتذكر أنه كان يتكلم، فيكمل:
- ثم توقف عن لعب دور أبي.. إنت هنا الابن وأنا الأب.. هيا
أعطني هذه الزجاجاة الملعونة.
أحملها بتقزز كأني أحمل ثعبانًا سامًا.. أقف مقابلاً له دون حراك،
أمنع نفسي من تكسير الزجاجاة القذرة للمرة الألف.. أعطيها له
فيمسك يدي بقوة، قائلاً:
- إياك والنساء يا علي!
يأخذ رشفة من الزجاجاة دون أن يفلتني، ثم يكمل:
- يجعلنك تظن أنك قد ملكت الدنيا بين يديك، وفي اللحظة التالية
يأخذنها منك لتتحول حياتك إلى سراب.
رشفة أخرى زادت من التواء لسانه، إذ أكمل:
- سيتركك في النهاية لأجل رجل آخر أقوى وأغنى منك.. سيتركك
لأجل من يظن أنه أفضل منك.. سيترك فراغًا في قلبك وستحاول ملأه
بأي شيء، فلن تجد إلا الخمر الرخيص.
يفلت يدي أخيراً ويرفع إصبعه، مهدداً مرة أخرى:
- إياك والنساء يا علي!

* * *

أقف خلف الستار الضخم الفاصل بين الكواليس وساحة السيرك..
أغمض عيني وأحبس أنفاسي.. أستمع للأصوات القادمة من الخارج
للحظات.. إنها ليلة رأس السنة ولا بد أن المقاعد مكتظة بالخارج.. تملأ
الأصوات المتداخلة أذني، يتخللها تصفيق شديد بين الحين والآخر.. كم
وقفت هنا أتخيلهم يصفقون من أجلي! كم من مرة انحنيت أمام
الستار المغلق ردًا لتحية جمهوري الخيالي! لا بد أن مروان ونجلاء في
ملابسهما الأنيقة يتأرجحان الآن على الحبال، بينما كل الأنظار شاخصة

إلى الأعلى في انبهار.. أفتح عيني مُطلقًا زفرة وأتسلل من وراء الستار
إلى الساحة.

* * *

- ولد يا علي.. انزل من عندك الآن.

نظرت للأسفل فوجدت أبي يكاد الشرر يتطاير من عينيه.. ألقيت
نظرة أخيرة على حركاتهم المنمّقة وبدأت نزولي حتى وقفت أمام أبي
مطأطأ الرأس.. أخذني من ذراعي بشدة دون كلمة واحدة، حتى وصلنا
إلى غرفته الفارغة في الكواليس.. أغلق الباب وانفجر في وجهي.

- هل جنت؟ ماذا كنت تفعل؟

- كنت فقط أريد أن ألقى نظرة من قريب.. ثم أن شبكة الأمان
كانت منصوبة، ففكرت.

- فكرت فيم؟! في أن تتعلم التآرجح على الحبال؟!

للمرة الأولى في حياتي قررت أن أواجهه.. قضيت حياتي في الفرار ولم
يفدني هذا إلى الآن. رفعت عيني في وجهه صارخًا:
- ولم لا؟! نعم أريد أن أتعلم.

تفاجأ من مواجهتي له بهذا الشكل الذي لم يره من قبل، ولكنه
قابل صراخي بأشد منه.

- لم؟ لتصبح واحدًا من هؤلاء المتأنقين المنافقين؟ لتسرق زوجة
بلياتشو آخر بكلامك المعسول وابتساماتك الساحرة؟ لتجعل من قلبه
وحياته حطامًا؟

لم ينتظر مني ردًا، فأكمل:

- ربما هذا البلياتشو الآخر لن يكون ضعيفًا أو جبانًا.. ربما عندما
سيراك معها على فراشه لن يستدير إلى الناحية الأخرى ويطلقها في
هدوء.. ربما سيفصل رأسك عن جسدك هذه المرة ويتراقص ضاحكًا
فوق جثتك.. هل هذا ما تريد؟

الظلام يُغْلَف الساحة، فكل الإضاءة موجهة إلى الحبال التي تتدلى من السقف العالي.. أتسلل في هدوء إلى أقصى الساحة متفادياً أن يراني أحدهم.. أنشبت يديّ إلى السلم العمودي الذي يمتد إلى السماء.. أضع قدمًا وراء الأخرى ماضيًا في الصعود إلى المنصة العالية.. أصعد بأقصى سرعة سمح بها حذائي المبالغ في حجمه.. عيناى معلقة بالمنصة العريضة لا تتحولان عنها.. شهقة من الجمهور إذ تقذف نجلاء نفسها في الهواء لتقع بين يديّ مروان، يتبعها تصفيق حاد.. أصل إلى المنصة فأقف عليها مواجهًا جمهور الناس الذين اتجهت أنظارهم إلى ناحيتي.. استشعرت الحيرة في أعينهم يتساءلون عن ماهية هذه الفقرة.. توقفت للحظات أستمتع باندهاشهم.. رفعت يديّ في سرعة إلى جانبيّ رأسي في اندهاش مصطنع، فانطلقت ضحكاتهم تملأ المكان.. درت حول نفسي في سرعة وأنا أنظر حولي في ارتباك، فزادت الضحكات.. وقفت أنظر إلى المقاعد الممتلئة بشتى أشكال البشر على مدى بصري.. أغمضت جفنيّ وفردت ذراعيّ إلى جانبيّ عن آخرهما كأني أحتضن ضحكاتهم.. ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهي ضاعفت من حجم تلك المرسومة هناك.. ملأت أذنيّ بأصوات ضحكاتهم ثم خطوت لأقفز إلى الأرض.

obeikandi.com

فارس

هذه المدينة تخاف مني، فقد رأيت وجهها الحقيقي.. الشوارع ما هي إلا قنوات ممتدة، وهذه القنوات مملوءة بالدم، وعندما تنفجر المجارير في النهاية كل الهوام سيغرقون.. القذارة المتراكمة من كل الجنس والقتل ستعلو لتغطيهم حتى أوساطهم، وكل العاهرات والساسة سينظرون إلى الأعلى صارخين «أنقذنا»، وأنا سأهمس.. لا.

Watchmen

obeikandi.com

القاعده الأولى: أنت لست منهم.

سحّاقًا للمدينة تتغذى على معاناتنا.. تنتعش بمخاوفنا.. تقتل إنسانيتنا لتجرّنا إلى الهاوية.. سحّاقًا لشهواتنا وأهوائنا وشياطيننا التي تتآمر مع المدينة وتوقعنا في الخطيئة.. سحّاقًا لمدينة الخطيئة.. هكذا فكّرت جالسًا في شرفة شقتي أشاهد الشارع من تحتي.. أستمتع بلسعة البرودة في الأجواء، بينما يداي ملتفة حول قذح ساخن من الشاي.. أنظر إلى الشارع مرة أخرى وملامح السخط ترتسم على وجهي.. أنظر إليهم يتحركون بعضهم في تودة كأنما لديه كل الوقت في العالم، والبعض الآخر يمرق مسرعًا كأنما يهرب من حتفه، ولكن ما لا يعلمونه لجهلهم أنهم جميعًا يسرون نحو مصيرهم المحتوم، مهما كانت سرعتهم فالنهاية معروفة.. هذه المدينة محكوم عليها بالهلاك، علمت هذا منذ زمن بعيد، ولهذا اتخذت طريقي الذي اخترت.. أنظر إليهم يتحركون فكأنما يعومون وسط القذارة، قذارة تراكمت طبقات فوق طبقات على مر السنين، لتصبح في النهاية أصلب من الصخر.. الكل يتحرك في اتجاه الثقب الأسود دون أن يبدو عليهم الجزع.. دون أن يخرج من بينهم عاقل يعيدهم عن الطريق.. الفساد يستشري حولهم في الهواء الذي يتنفسونه دون أن يقصّ ذلك مضاجعهم.. يطأطؤون رؤوسهم بحثًا عن لقيمات من الخبز على الأرض دون أن ينظروا إلى أي مصير هم سائرئون.. دون أن يدركوا ماذا يفعلون بسليبتهم وأنانيتهم.. دون أن يروا الخطيئة التي تحيط بهم من كل مكان حتى أصبحوا جزءًا منها.. هذه المدينة محكومة بالهلاك.. كل سيرهم وجريهم وملاحظتهم الرزق ليس إلا مجرد عبث لن يفيدهم شيئًا في النهاية، كالمحكوم عليه بالإعدام مهما تحرك داخل الزنزانة فلن يفيدته ذاك شيئًا.. عندما يحين

الوقت سيفهمون، سيعلم الجميع إلى أي مصير قادوا أنفسهم.. حتى هؤلاء الذين رفضوا الاشتراك، الذين قرروا أن فعل لا شيء أفضل من الانضمام للقطع.. سيعلمون أنهم بسليبتهم قد أفسحوا الطريق لتوغل الخطيئة داخل الآخرين.. سيعلم الجميع في النهاية، ولكن بعد فوات الأوان.

أرشف من الشاي رشفة جديدة باستمتاع.. أشعر بالسائل الساخن كأنها يذيب الثلج الذي تراكم فوق أعضائي من برودة الجو.. أغمض عيني وأسمح للضخبالدخول إلى مسامعي، ظننت أن الوضع سيتغير إبان الثورة مثل كثيرين، ولكن كم كنت مخطئًا! لم تبرز الثورة أحسن ما فينا إلا لأيام ظننت أننا انتصرنا على المدينة ولكن هيهات.. التف العنف الكامن بداخلنا كالثعبان على كل ما كان جيدًا في أنفسنا.. ظهر الحيوان المحبوس بالداخل بغرائزه الأولية.. انفجر كل العنف بداخلنا لتتلطخ الأرض بالدماء في كل مكان.. جنون يقود جنونًا حتى تحولت المدينة إلى غابة تأكل كل ضعيف تقع يدها عليه.. كثرت المسوخ وخرج الوحوش من الجحور.. تفشّى السعار حتى أصاب الجميع.. تحول القتلى إلى مجرد رقم في نشرات الأخبار لا يزعجنا إلا إذا زاد عن خانتين. هل ملّت المدينة من حالة اللا سلم لا حرب التي ظللنا عليها لسنوات فقررت تحريك الأمور بعض الشيء وقادت الناس للثورة، لن أعلم أبدًا. أنهيت الشاي فتحركت إلى الداخل جالسًا أمام التلفاز الذي يبث تلك القناة الإخبارية.. قتلى وأشلاء في تفجير أمام مدرسة، ذبح شاب بسبب مشاجرة على فتاة، اغتصاب طفلة في الخامسة وإلقاؤها من سطح العمارة لتغطية آثار الجريمة، قتل زوج على يد زوجته وعشيقها.. جلست بتراخٍ أشاهد التفاصيل في هدوء.. الأخبار هي الطريقة التي يصرخ بها العالم، ينبهنا في كل لحظة إلى مستوى جديد من الانحطاط انخرست فيه أقدامنا.. لا أسمعها لأشعر بشيء بل أسمعها لكيلا أشعر

بشيء في الحقيقة.. أتذكر عندما كانت أخبار أقل من هذه تفرغني، كنت أشعر بالألم للضحية والغضب من الجاني.. زادت بشاعة الأخبار ومعها قلّ إحساسي حتى انعدم في النهاية.. اليوم لا أشعر بشيء ناحية كل من الجاني والضحية.. كلما زادت الأخبار بشاعة زاد الخدر والتنميل الذي يملك قلبي.. هذا الخدر الذي يجعلني أستطيع فعل كل ما أريد أن أفعل.. يملؤني باللامبالاة تجاه المدينة وقاطنيها، فلا أشعر معهم بتعاطف أو شفقة.

قطع أفكاري صوت جرس الباب فقممت من مكاني متكاسلاً.. فتحت الباب فوجدت عمي مكفهر الوجه كالعادة.. ابتسمت في لامبالاة، قائلاً:
- أهلاً يا عمي، تفضل.

رد عليّ بامتعاض:

- لا لن أدخل مثل كل مرة.. لقد أتيتك بإيراد أرضكم عن ستة أشهر المنصرمة، فخذ ودعني أذهب في طريقي.

سلمني ظرفاً مغلقاً، فأخذته من بين يديه في استخفاف.

- لماذا لم تبعث به أحدهم من المحل عندك ما دمت لا تحب

المجيء لهذه الدرجة؟

- لأنها أمانة في عنقي ولا بد أن أؤديها بنفسِي.

شدّد على كلمة أمانة في وسط كلماته، فابتسمت في نفسي.. هذا

الأمين لم يعطني جزءاً من ميراثي إلا بعد مشادات استمرت لشهور.. كم

عايرني أنه آواني وأطعمني أنا وأخي الصغير بعد موت أبينا! قصدت

استفزازه، فقلت متلمساً الظرف بين يدي.

- أليس المبلغ بقليل هذه المرة؟

نظر إلى عينيّ في غضب وحاول أن يتفوّه بشيء ولكنه آثر الرحيل

دون كلام، فغادر في سرعة.. هذا اللص الذي يتنكر في رداء العفة والطهارة..

يمنّ عليّ أنا وأخي ببعض الأموال ظناً منه أنه يؤدي الأمانة.. ينام

مستريحًا في فراشه بينما يعلم أنه لص أكل مال اليتامى دون أن يجفل.. مجرد إفراز جديد من إفرازات المدينة.. باع معظم الأرض التي تركها أبي كما عرفت بنفسي ليضم ثمنها إلى ممتلكاته، وعندما واجهته اتهمني بنكران الجميل وعائري بكل النقود التي أنفقها على دراستي وتدريباتي في أربع سنوات.. عندما طالبته بشقة أبي جنّ جنونه، إذ كان يؤجرها للعرب ويجني من ورائها الكثير.. كم أستمتع عندما أراه! إذ أرى الخجل متواريًا في عينيه وراء الغضب الذي يمثله.. لا بد أنه يتنفس الصعداء كلما أنهى الزيارة التي يمنّ بها علينا مرتين في السنة.. يعلم أي أعلم أنه لص، وهذا يشعره كأنه فأر في مصيدة، كلما جاء إلى بابي تشدّق وشدّد على كلمات مثل الأمانة والوفاء، كأنه يدفع الجرم الثابت عن نفسه.. كم أحب زيارته! تشعرني بالانتشاء.. كلما نظرت إليه شعرت أي أنظر إلى المدينة في عينها الميتتين.. عينها الباردتين المشقوقتين بالطول كالأفاعى.. وقفت على الباب المفتوح للحظات ثم استدرت عائداً إلى الداخل أتمتم: ألا سحقاَ لمدينة الخطاة!

* * *

القاعدة الثانية: لا تفصح أبداً عن هويتك الحقيقية.

اسمي أكرم.

اسمي حسام.

اسمي علاء.

اسمي محمد.

اسمي لا شأن لك به.

كلها إجابات لمن يسألني عن اسمي.. لا أفصح أبداً عن اسمي الحقيقي، هذه هي قواعد عالمي وحياتي.. لا تهم الأسماء فيما أقوم به.. لا يهم تاريخ عائلتي أو درجتي العلمية، كل ما يهم هو أن أنقذ المهمة واتنقد أجرى دون أسئلة أخرى.

أعود لمشاهدة التلفاز مرة أخرى بعد أن أغلقت الباب، ولم ألبث أن جلست خمس دقائق حتى رن جرس الباب مرة أخرى.. قمت لأفتح لأجد في وجهي عادل بألفاظه البذيئة وشكله اللزج، أشرت إليه أن يدخل دون حتى أن ألقى عليه السلام.. بدا ذلك مبتذلاً جداً، خصوصاً مع عادل الذي لا يأتي إلا لتعكير السلام.. تساءلت في داخلي كيف يبدو مقززاً كل مرة عن سابقتها! هذه مهارة تستحق الدراسة.. نظرت إليه متقززاً وسألته بنفاد صبر:

- ماذا جاء بك؟ ألم أقل لك أن تتصل وأنا سأتي إليك؟

مط شفتيه قائلاً بطريقته البذيئة:

- جئتك لأن الموضوع لا يحتاج تأخيراً، ولأني لا أفهم موضوع خوفك

من قدومي إليك.

ابتسم بشراسة كما هي عادته قبل أن يلقي واحدة من دعاباته

البذيئة:

- هل تخاف أن يعلم الناس بعلاقتنا أيتها الفتاة؟

- انتقي ألفاظك.

- لِمَ.. هل تخجلين يا فتاة؟

لم أعد أحتمل؛ سأقتله ثم أفكر في العواقب بعد ذلك.. يدي تعصر

رقبته في لمح البصر.

- حسناً حسناً، اتركني؛ سأخنتق.

يستحق القتل ألفي مرة، ولكنني أحتاج إليه للأسف، أفلته ليقع

محاولاً التقاط أنفاسه، قائلاً من وسط لهائته:

- سريع ومتحفز دائماً كعهدي بك.

قام يسند على يديه وقدميه كالكلب.. ابتسمت لمنظره وقاومت

رغبتني في ركله في معدته.

- هيا اختصر، فليس لديّ الليل بأكمله يا...

أبتعت كلماتي بسببه مناسبة ابتلعها كعادته دون أن يجفل.. أحياناً أحس أن سبّ عادل يفرحه، لذلك لا أفعلها إلا مضطراً.

- ببساطة عملية جديدة.. غاية في البساطة، كالعادة.

ثم وكأنه تذكّر:

- طبعاً مع التأديب، لا تنس.

- ومن هو المطلوب؟

أخرج تلك الورقة المكتوبة بعناية من جيبه.. دائماً ما يحيرني عادل بشكله وألفاظه وتناقضهما، مع اهتمامه الشديد بعمله.

- لا أسماء كالعادة.. كل ما هو مطلوب مكتوب عندك، ونفس

المبلغ، مع عمولتي بالطبع.

ابتسم ليكشف عن ألعن أسنان قد تراها في حياتك.. لتختفي

ابتسامته فجأة ناظراً إلى نقطة ما، نظرت لأجده أخي مستيقظاً وينظر

إليه في كره واضح.

- أما زال أخوك معك؟

اكتفيت بأن رمقته بنظرة ازدراء جانبية، محوتها سريعاً، لتحل محلها

ابتسامه، مشيراً إلى أخي كي يجلس بجانبني.

- أحياناً أحس أنه يسمعنا.

- كيف يسمعك يا أحمق.. إنه لا يسمع ولا يتكلم منذ أن كان سنه

عشر سنوات.

- لا أعلم.. أحياناً أخاف من نظراته. هل عندك من شيء يؤكل؟

قام دون أن أتكلم إلى المطبخ.. الحياء صفة لا يمتاز بها عادل بأي

شكل.. التفتت إلى أخي الجالس ليشير لي ببعض الإشارات، معناها:

- عمل جديد؟

أشرت له أن نعم، ليرد عليّ بإشارة إلى قلبه، أعقبها بإشارة إلى رأسه،

معناها:

- أخاف عليك.
- لا تخف أبداً.
- أعقت بإشاراتي بابتسامة قلماً ملأت وجهي.
- لا يرتاح قلبي إلى هذا الشخص الذي تعمل معه.
- أشار إلى عادل الذي كان يمسك بتفاحة يقضم منها بوحشية.. نظرت إليه في استغراب لأتلفت لأخي، مشيراً إليه:
- إنه نكرة.. لا أحد، فلا تخف منه.
- نظر إليّ في تردد، ثم أشار إلى قلبه.
- أنا خائف.
- لا تخف، فما دام بداخل صدري نفس يتردد لن أترك مكروهاً يصيبك أبداً.
- خرج عادل من المطبخ قائلاً بغم ممتلئ:
- ألا يوجد عندك طعام آخر؟

* * *

القاعدة الثالثة: أنت لست بطلاً

منذ صغري وأنا دائماً ما أحسست بالاختلاف عن الآخرين.. كنت أشعر أنني مقدر لي أن أصبح بطلاً خارقاً كأبطال القصص المصورة، ربما لهذا أحببت الألعاب القتالية.. ربما كان هذا السبب الوحيد لتفوقي الشديد فيها.. كنت أفارق التدريبات كأني أفارق الماء، ولا أشعر بنفسي إلا عندما أرجع مرة أخرى.. كنت طفلاً ظن أن الحياة كالقصص المصورة، وظن أن الأبطال يملؤون الدنيا من حوله ليقتضوا على الأشرار الذين لا هم لهم سوى السيطرة على العالم.. حتى شاو الصيني رأى في شيئاً مختلفاً.. ربما رأى في شغفي للقتال التلميذ الذي ظل يبحث عنه.. ابتسمت وأنا أتذكر شاو الذي جاء إلى أبي بعد أن شاهد مباراتي لبطولة الجمهورية في الكونج فو، أثنى على قتالي وأدّى لي التحية، وترك بطاقته التي كتب

فيها بإنجليزية أنيقة «مدرّب فنون قتالية».. شاو الذي كان مفتاحي لعالم لم أظنه موجوداً من الأساس.. كم كان سيخيّب أمله فيّ الآن.. كان سينظر إليّ كعادته بعينه الضيقتين في ضيق وينصرف دون كلمات، ولكن ما شأنه؟ لقد انصرف عني مثل الجميع، ملمم حاجياته وسافر إلى بلاده وبعث برسالة مبهمة يشكرني فيها على مجهودي في التدريب ويتمنى لي التوفيق.. لقد اخترت طريقي بإرادتي الحرة، وليذهب كل من لا يحب ذلك إلى الجحيم.

قفزت إلى ذهني ذكرى مقابلتي الأولى بعادل، أول ما وقعت عيناى على ملابس العمل السوداء المعلقة في دولابى الموارب، ربما لو لم أراه تلك الليلة لما كنت ارتديتها أبداً. كنت عائداً من عند بعض الأصدقاء في ساعة متأخرة من الليل.. كانت ليلة رأس السنة وانطلقت في السهر محتفلاً ربما لتنفيس بعض غضبي.. إذ أسير في الشارع وجدت ذلك اللص يكيل لعادل اللكمات والضربات.. ربما لو كنت أعلم ما أعلمه الآن عن عادل لكنت تركت اللص يقتله إن شاء، ولكنى كنت أظن نفسي بطلاً وقتها.. تحركت إلى الشارع شبه المظلم في خفة لأقف على بُعد أمتار قليلة من المشهد وأقول بصوت هادئ:

- أتعلم؟ لم أحب اللصوص أبداً.

انتبه لوجودي، فأجفل ثم استدار ووقف ينظر إليّ في بلاهة، فسألته في استغراب:

- هل ستقف محققاً فحسب؟

- ماذا تريد؟

- حسناً.. سأقولها مرة واحدة وبأبطأ طريقة ممكنة لتفهمها.. اذهب الآن ولن أفعل لك شيئاً، أو هاجمني فتنتهي ممداً على الأرض بذراع مكسورة.

ربما لم يسمعي بسبب كل المخدر الذي تعاطاه قبل أن يضرب

الشوارع باحثًا عن ضحية، إذ لم أكد أنتهي من جملتي إلا ووجدته يجري ناحيتي حاملاً مطواته.. تحركت إلى الجانب فجأة فاختل توازنه ووقع على الأرض ليقوم من فوره مواجهًا إياي.. يدور من حولي في يده مطواته يحركها في دوائر كأي بلطجي يحترم نفسه.. يبحث عن أول نقطة ضعف لينقض عليها وينهي الأمر، بينما أنا أنظر إلى يده في ثبات وأزفر في هدوء كما علمني شاو.. أستدعي كل طاقتي الكامنة وأصفي ذهني من كل شيء.. اشاهده يرجع ذراعه إلى الوراء مسددًا مطواته إلى هدفها.. أزفر مرة أخرى وأتوحد مع كل ما حولي.. أسمع دقات قلبه تتسارع.. أشعر بعرقه يبدأ في التصبب رغم البرد.. الوقت يبطئ، يتحول كل شيء إلى مشهد بالتصوير البطيء، وفي أقل من ثانية حددت هدفي ودرست كل الاحتمالات.. انقضضت على يده في سرعة ولويتها إلى خارج جسده، لأسمع صوت تهشم العظام، ثم عاد كل شيء إلى سرعته الطبيعية.. اللص يصرخ في ألم، بينما عادل الذي رأى كل شيء يقف فاتحًا فاه في ذهول.. وقفت أمام اللص للحظات أتأكد من انتهاء حماسته للقتال، بينما هو يسبّ ويطلق اللعنات بأعلى صوت ممكن بين تأوهاتة، ممسكًا بذراعه.. انتبهت إلى عادل الذي أخذته حماسة الثأر وبدأ في توجيه بعض الركلات للرجل الراقد على الأرض، الذي لا بد أن جسده الممتلئ بالترامادول لم يشعر بأي منها.

- وفرّ مجهودك، فلن تشعره بأسوأ مما هو فيه.

قلتها له في محاولة لثنيه عما يفعل، فردّ عليّ بصوت لاهث:

- لن أتركه قبل أن أقتله.

بدا لي من لهائه وعرقه الذي تصبب أن عادل سيموت بالسكّنة القلبية، قبل أن يشعر اللص بشيء، استدرت مكملًا طريقي وأنا أقول.

- حسنًا، افعل ما تحب.

استوقفني قائلاً:

- انتظر.

أودعه ركلة أخيرة في معدته، وأتى ليقف في مقابلتي.
- أنا آسف؛ أخذتني حماسة الثأر، ولم أشكرك على ما فعلته من أجلي.

قلت كأبي بطل قصص مصورة:

- لا داعٍ للشكر، فلم أفعل إلا الواجب.

- لقد أنقذتني من القتل.. دعني أكافئك على الأقل.

كنت أتفادي وجودي مع عمي وفي البيت في ذلك الوقت، فقد كان عراك الميراث ما زال في أوجّه، ربما لهذا قبلت دعوته على العشاء في ذلك المطعم الفاخر، ربما كنت أبحث يومها عن طريق للهروب.

* * *

القاعدة الرابعة: كلهم ذئاب فلا تأخذنك بأحدهم شفقة.

«كلهم ذئاب».. هكذا حدثت نفسي وأنا أقود السيارة متوجهًا إلى هديفي، «دعهم يأكلون بعضهم بعضًا واخرج من وسطهم سالمًا؛ كلهم نصابون، مدهانون، قتلة وتجار مخدرات وسلاح.. يغترفون من أموال الناس ليضيفوا إلى أرصدهم المكتظة ولا يقيمون للعدالة أو للقانون وزنًا، لا يعترف أحدهم إلا بقانون واحد.. القوة».

كان عادل كريمًا جدًا معي، وضع أمامي صنوفًا من الطعام لم أعلم حتى بوجودها، وعندما عرض عليّ الخمر لم أمانع على سبيل التجربة.. كان يضع لي السم في العسل بالمعنى الحرفي للكلمة. بدأ في الكلام بينما انهمكت في الطعام:

- أعرفك بنفسي، أنا عادل وأعمل...

فكر قليلاً ثم استطرد:

- سمسار.

- سمسار عقارات وأراض وهذه الأشياء؟

قلتها ثم رجعت لأملأ فمي بالطعام مرة أخرى، فهز رأسه يميناً ويساراً قائلاً:

- ليس بالضبط.. أنا سمسار أشمل من هذا.. يمكنك القول إنني سمسار لكل شيء.

- لا أفهم.

- حسناً، إن أردت أن تصلي علمتك الوضوء.. إن أردت أن تشرب خمراً حضرت لك كأساً.. إن أردت أن تشتري شيئاً.. أي شيء، كنت لك عوناً.. إن أردت أن تؤدب أحدهم كنت عصاك التي تضرب بها.
أكمل مبتسماً:

- ربما لن أضرب أحداً كما تعلم، ولكنني أجد الرجال القادرين على فعل ذلك بكل سهولة.

هزرت رأسي غير عابئ، فسألني:

- وأنت، ماذا تفعل في حياتك؟

- لا شيء.. السنة الأخيرة في الجامعة.. البطالة في الغالب.. لا أعلم، ربما سأفكر في شيء.

رجع إلى السوراء للحظات وأشعل سيجارة في هدوء، وهو ينظر إلى وجهي في اهتمام، قائلاً:

- ربما لدي عمل لك.

- هل تريدني أن أضرب أحداً من أجلك؟

قلتها بينما أضحك في سخرية، فأجاب في سرعة:

- ولم لا؟!

أنهيت طعامي في سرعة وأجبت في جدية:

- لا؛ أنا لا أفعل هذه الأشياء.

- لا تخبرني تلك الأشياء عن العدالة والقانون والمثل العليا وهذه

الخيالات.. العالم يعج بالأوغاد يا صديقي، وأنا لدي مبدأ واحد، إن

لم تستطع مواجهتهم فانضم إليهم أو كن سمسارًا بينهم واخرج بأكبر ربح ممكن.. أرجوك لا تتظاهر بالبراءة والصدمة، فأنا أعلم أنك لست كذلك.. أنا أرى فيك شيئًا مختلفًا، لست على غرار هؤلاء الثيران الذين تعج بهم الطرقات.. صدقني أنت مختلف وأنا أرى الرغبة في عينيك أن تصبح شيئًا مهمًا، ومعني ستفعل.

ابتسم ابتسامة لزجة ليستطرد:

- أنا أقدم إليك الفرصة لتصبح من السادة.

- ولكنني سأكون كلب حراسة في تلك الحالة.

- كلب حراسة وتعيش في قصر أفضل بكثير من بطل بلا منزل أو

نقود.

ربما كانت الخمر قد بدأت تلعب برأسي ولكن بدا كلامه مقنعًا بالفعل.. ربما كان غضبي من عمي وهروب شاو الذي تلى موت أبي قد تجمعوا لتزيين الأمر في عيني.. قد عشت حياتي بالكامل أحلم أن أكون بطلاً كالقصص المصورة، دون أن أفكر في احتمالية أن أصبح شيرير القصة.. الحق أن الأشرار يبدوون أكثر أناقة وجاهًا، يملكون الأموال والنساء، بينما البطل يكافح لتأمين الوجبة التالية.. ينام الأشرار ملء أعينهم بينما البطل يسهد الليالي في الطرقات يبحث عن اللصوص وقطاع الطرق.. عادل كان محققًا في شيء واحد، العالم يعج بالأوغاد بالفعل، أغلبهم أجبر على هذا الطريق بينما القلة يعطون فرصة مثل فرصتي.. لقد كبرت على أحلام الأطفال والقصص المصورة، واصطدمت على صخرة الحياة مرات بعد مرات.

قطع عليّ أفكاري قائلاً:

- ما قولك الآن؟

- دعني أفكر بعض الوقت.

ابتسم في انتصار وأخرج بطاقة من جيبه عليها رقم تليفونه، قائلاً:

- فُكِّر كما تشاء واتصل بي إن وافقت.. ما اسمك بالمناسبة؟

- اسمي.. اسمي علاء.

حسنت الموضوع في يومها، وقابلته بعدها بأيام ليعلمني طريقة عمله.. العملية تبدأ به، سيأتيه أحدهم عن طريق عميل آخر، فأهم شيء في عمله هو السريّة.. سيأتيه باكيًا مولوداً يحكي عن ذلك اللص الذي أخذ أمواله وصفقائه القذرة منه.. يأخذ منه المعلومات، يوصلها إليّ ببساطة لأقوم بتأديب الضحية.. ذراع مكسورة، أنف مهشم، أرفف زجاجية متناثرة.. بعدها يأتي دور العملية العكسية.. يظهر هو في حياة الضحية المسكينة بشكل طبيعي مستفسراً عن سر ذلك الكسر أو تلك الندبة، ليعرض عليه خدماته المتواضعة كما سماها، لنقوم بنفس العملية ولكن بشكل عكسي، لنخرج فائزين من الطرفين.. قال لي يومها بالحرف:

- يا صديقي دعهم يأكلون في بعض ولنخرج منهم بعض الفتات.

كلهم ذئاب فلا تأخذنك بأحدهم شفقة.. أنف مهشم أو ذراع مكسورة للطرفين يحقق نوعاً من العدالة الشعرية.. أوقفت السيارة أمام توكيل سيارات مشهور ذي مكتب زجاجي ضخم، يجلس فيه هديفي يعد نقوده.. لماذا أغلب أهدافي عندهم توكيلات للسيارات.. سؤال نفضته سريعاً من رأسي لأستعيد تركيزي، مخرجاً سلاحه الذي دائماً ما أعتزّ به وأعتبره رفيق دربي.. عصاي الحديدية التي عكست على جانب وجهي انعكاس ضوء بعيد، لأتوجه إلى الباب في تؤدة.. ربما قررت أن أصبح شرير القصة، ولكن كل أهدافي هم أكثر شراً مني، ألا يجعلني هذا نوعاً ما بطلاً؟

* * *

القاعدة الخامسة: لا أفنعة، دعهم يرون وجهك، فهم لن يروه طويلاً على كل حال.

أسير في ملل الأمتار القليلة الفاصلة بيني وبين توكيل السيارات الذي زينت يافطته -التي حملت اسما براقًا- مجموعة من أسماء الماركات العالمية للسيارات.. أسير متمنيًا أن تكون تلك المرة فيها اختلاف ولو بسيط.. دخلت من الباب ليطلالعني وجه تلك الموظفة، محاولة طرد النوم من عينيها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، لتبدأ في سيل من الكلمات الموجهة:

- أهلاً بك في معرض الدسوقي للسيارات.. شراء أم إيجار حضرتك؟

- أليس الوقت متأخرًا لفتاة مثلك أن تعمل؟

قابلتني بابتسامة قلقة لترد على سؤالي في دبلوماسية ومداهنة:

- نحن في معرض الدسوقي نخدم حضرتك في كل الأوقات على مدار أربع وعشرين ساعة.

نظرت إليها في استخفاف متحسسًا العصا الحديدية تحت ملابسها.

- جواب خاطئ.

قلتها مخرجًا سلاحها، مستهدفًا أول سيارة في طريقي لأضرب زجاجها الأمامي الذي انفجر بدويًّا عالٍ، لتنفجر بعده الموظفة في الصراخ بجانب أذني مباشرة، فاستدرت مواجهًا إياها في تساؤل:

- لماذا تصرخين بجانب أذني؟ أتريدان إصابتي بالصمم يا امرأة؟

وقفت تنظر إليّ دون حراك، فأشرت إلى أحد الأركان البعيدة.

- اذهبي إلى هناك واصرخي كما تشائين.

ابتعدت عني لتجري موزعة صرخاتها في أنحاء المكان، لتخرج من الباب في النهاية ويختفي صوتها رويدًا لأسمع بعدها صوت خطوات تجري في المكان، لأقول محدثًا نفسي:

- ها قد جاءت لجنة الاستقبال.

أرى بعدها مجموعة من الجدران البشرية.. حُلل سوداء.. ذلك الشعر القصير والعضلات المتضخمة، كأنها هناك ماكينات في مكان ما

تصنعهم بالجملة، يقفون أمامي في تردد.. ابتسامة ملأت وجهي لأضرب بعصاي زجاج سيارة أخرى بجانبني، لأعطيهم بعض الحماس لمهاجمتي لينقض عليّ أقربهم مطلقاً صرخة قتالية، ليتحول المشهد للتصوير البطيء.. تفاديت قبضته التي تماثل حجم وجهي لأدخل عصاي من تحت ذراعه رافعاً إياه في الهواء بسهولة، لألقيه على أقرب سيارة فيتهشم زجاجها في عنف، ليرجع كل شيء إلى سرعته الطبيعية مرة أخرى وأقف مستمتعاً بنظرة الدهول على وجوههم، قائلاً:

- هل ستنتظرون إليّ في انبهار طوال اليوم؟

نفضوا عنهم ذهولهم لينقضوا عليّ جميعاً، مُطلقين صرخات، منها الرفيع ومنها الغليظ، لأنحرك بينهم في سرعة، متفادياً ضرباتهم في سهولة وعصاي تعمل فيهم عمل السيف.. ضربة هنا.. ضربة هناك، لأترك كلاً منهم من ورائي بتذكار سيتذكرني به لفته طويلة.. ألقيت عليهم نظرة متشفية لأرى تلك اللوحة التي صنعتها يداي من الفوضى.. أنظر إلى الواجهة الزجاجية في الدور التالي لأطالع وجه ضحيتي القادمة، الذي ينظر إلى رجاله في انهيار.. أشرت له بعصاي بما معناه أنك أنت القادم.. كم أستمتع بعلامات الرعب عندما ترتسم على وجوههم! يجري في رعب من سلم خلفي إلى الشارع، لأقول محدثاً نفسي في سأم:

- دائماً ما يفرون، لم لا يقف أحدهم ليواجهني ولو لمرة؟ جنباء!

توجهت في ببطء إلى الشارع من باب الدخول لأراه بجسده البدين يجري ويتعثر وهو يصرخ في رعب، وأنا أتحرك من ورائه في ببطء.. لماذا دائماً يجرون وأنا أمشي ببطء وفي النهاية ألحق بهم، فعلاً شيء غريب.. يدخل إلى سيارته الفارحة.. يحاول غلق الباب.. ينجح بعد محاولات مضية في حشر جسده بداخل السيارة محاولاً تشغيلها.. حدثت نفسي: - دائماً لا تعمل السيارة من أول مرة.

يحاول تشغيل السيارة فلا تستجيب.. وثبتان لأكون عند السيارة

لأبدًا في تهشيم مصباحها الخلفي بعصاي، لتجحظ عيناه في دھول
محاولاً تشغيل السيارة في غضب.. فتحت باب السيارة لأجرجره إلى
الخارج وهو يقاوم في استماتة.

- أتفوتّ الحفل في منتصفه يا رجل؟

- ماذا؟ ماذا تريد مني؟

ابتسمت مستمتعًا بخوفه.. هؤلاء الخاطئون يخافون أكثر من

غيرهم.

- أتريد نقودًا؟ سأعطيك.. سأعطيك.

- أين دوسيه صفقة السيارات الجديدة؟

وكأما لم يسمعني.

- سأدفع لك أضعاف ما يدفعون لك.

احتد صوتي لأقول في غضب رافعًا عصاي أمام وجهه في تهديد:

- أين الأوراق؟

- في الخزانة داخل المعرض.. إنها مفتوحة.. أرجوك لا تقتلني.

ضربة وجّهتها إلى وجهه ليسقط فاقدًا الوعي.

- أشكرك لتعاونك معنا.

هؤلاء الجبناء بأقنعة الوحوش.. كم أكرههم!

* * *

القاعدة السادسة: لا أسئلة.

لأكثر من ساعة ظللت ممددًا على الفراش، محدقًا في سقف غرفتي
المظلمة، أفكر في حياتي الحالكة.. كم كنت أتمنى أن تكون حياتي أبسط
من ذلك، أسهل من ذلك، أهدأ من ذلك! افكر في ذلك الفراغ العظيم
الذي أسميه «حياتي».. كم أشتاق إلى دفء بشري! كم أحتاج إلى شيء
يحتويني! إلى شخص أبكي أمامه بلا خجل، كم أشتاق إلى البكاء.. كم
أحتاج إلى الحب، ولكن كيف يحب من كان مثلي؟! دماء وجريمة

وعالم ليس مني ولست منه، عالم دخلته بقدمي ممنيًا نفسي بالأموال والحياة الكريمة.. ظننت لغبائي أنني سأتوقف متى وصل رصيدي إلى رقم معين في البنك، ولكن عندما وصلت إلى ذاك الرقم طمعت في المزيد، وبعده المزيد والمزيد.. هل أصبحت أسير ذلك العالم للأبد بلا فكاك؟ هل أصبحت كمن يشرب من البحر كلما شرب أكثر ازداد ظمأه فلا يرتوي أبدًا.. ظننت عند قراري أن الشرير قادر على نبذ الطريق في أي وقت شاء، فمضيت في الطريق الذي كنت أظنني أرى نهايته، ولكن كلما اقتربت من النهاية حتى أصبحت قادرًا على ملامستها.. وجدتها تبعد عني من جديد.. كيف سينظر لي أخي الصغير عندما يكبر ويعلم ما أفعل؟ لا أظنني سأكون بقادر حتى على النظر إلى وجهه.. بعض الأحيان أحسده على عاهته.. لا يسمع شيئًا من أكاذيب عالمنا.. لا يضطر إلى التفوه بالتفاهات.. أحيانًا أتخيله مثل من يمشي تحت الماء، لا يسمع شيئًا ولا يشعر بشيء.. أحيانًا أحسده وأبغض نفسي أي أجره إلى عالمي المُعقد المتشابك.

قطع خواطري جرس الباب، نظرت إلى ساعتني لأجدها تقارب الواحدة صباحًا.. قمت من فراشي ونظرت من العين السحرية فرأيت عادل يقف متوترًا وراء الباب.. وقفت للحظة أسبّ وألعن فيه وفي مقابلاته السوداء، فتحت بعدها الباب في عنف قائلًا في حدة:

- ماذا تريد؟

- يا أخي قل تفضّل مثل باقي الناس ثم اسألني هذا السؤال.

- لا أريدك أن تتفضل، في الحقيقة نَبْهتكَ مرارًا ألا تأتي إلى هنا من

الأساس.

- أدخلني فقط ثم دعنا نتكلم.

حشر جسده في فتحة الباب وضغط جسده إلى داخل الشقة، وتحرك

في سرعة ليتخذ مجلسًا بينما يدعوني للجلوس بجانبه بابتسامة مدهانة

تزين وجهه.. جلست عاقداً يديّ على صدري دون كلام، فأخرج من جيبه رزمة من النقود أعطاها لي، قائلاً:

- هذا نصيبك من العمل السابق.

- ألم تستطع أن تسلم النقود لي في الغد؟

- عندي لك أكثر من النقود.

ثم ضيق عينيه في خبث وقال:

- عملية جديدة.

- أليس الوقت مبكراً بعض الشيء للقيام بالعملية العكسية؟!

- لا، هذه عملية مختلفة وتحتاج إلى شخص من نوع خاص.

- مختلفة! مختلفة كيف؟

أخرج ورقة مطوية من جيبه أعطاها لي قائلاً:

- عملية توصيل من بين العنوانين المكتوبين عندك في الورقة.

نظرت إليه في تساؤل، فأضاف منبهاً:

- بلا أسئلة إضافية.. هذا هو الشرط الأساسي.

تراجعت في مقعدي متعجباً وسألته:

- ومتى الموعد؟

- في خلال ساعة من الآن ستقوم بالاستلام.

- ولم تستطع أن تعلمني قبلها بوقت كافٍ.

- اهدأ يا صديقي فأنا لم أعلم إلا قبل نصف ساعة من الآن.. كان

سيقوم بالمهمة غيرك ولكن الغبي قاد مخموراً وانتهت به الحال هو

وسيارته في أحضان سيارة نقل.. الناس مستعدون للدفع بسخاء إذا تم

التوصيل في الميعاد.

نظرت إليه في تشكك فأخرج رزمة جديدة من النقود وضعها أمامي

على المنضدة، قائلاً:

- هذا فقط نصف المال والنصف الآخر بعد التسليم.

زفرت بشدة.

- حسناً سأقوم بهذا الشيء الذي لا أعلم عنه شيئاً.

- أشكرك يا صديقي لقد أنقذتني اليوم.

- أرجوك توقف عن مناداتي بصديقك.. قلت لك سأفعل الشيء

اللعين، فتوقف عن مداهنتي.

- حسناً، هل عندك من شيء أشربه؟

- اخرج من هذا الباب حالاً وإلا سأدق عنقك.. اخرج.

* * *

القاعدة السابعة: لا تأخذ مشاعرك الشخصية إلى العمل

أتحرك في الشوارع بينما ألعن عادل والجو البارد.. ألعن نفسي..

في ليلة كهذه قابلت عادل من خمس سنوات.. اليوم رأس السنة وقد

أصبحت أكره هذا اليوم، فإنه يذكّرني دائماً بما آلت إليه حياتي.. أكره

اكتظاظ الشوارع، الاحتفالات التي تنتهي دوماً بالموبقات، الإحساس

المزيف بالفرحة الذي ينتاب الأشخاص.. لعبة أخرى من الأعياب المدينة

لدفع الناس إلى الخطيئة بدعوى الاحتفال بالعام الجديد.. أتحرك بين

السيارات والمحترفين متوجّهاً إلى عنواني الأول الذي تصادف -لحظّي- أنه

ماخور مشهور، كباريه كما يسميه الجميع.. مركز شرور المدينة.. بيت

الداء كما أسميه أنا.. كأن هذه الليلة تصرّ أن تسوء أكثر فأكثر.. أزر

في هدوء وأحاول التركيز.. أحاول نسيان كل ما أشعر به وأدع الليلة

تمر بسلام.. في عمل مثل عملي لا يسمح لي بالحزن، بالسرور، أو حتى

بالغضب.. يجب أن أكون بارداً كلوح الثلج وإلا تأثر حكمي وتركيزي،

وهذا كل ما يلزمه الأمر.. لحظة واحدة من الخلل وتحوّل إلى جثة

ملقاة على جانب الطريق.. أتذكر شاو كان دوماً ما يقول:

- اطرّد كل الأصوات خارج عقلك.. كن كالماء الساكن ولا تسمح

لأفكارك بتعكير صفوك.

كم أحب أن أراه الآن في نفس مكاني وظروفي، لأرى كيف سيكون
كالماء الساكن كما كان دومًا يرشدني.. أتنفس بعمق مرة أخرى وأواصل
القيادة متمنيًا أن تنتهي تلك الليلة على خير.

دقائق قليلة ووصلت إلى المكان الذي أحاط به حائط سميك من
كل الجهات، بعد أن تكرر الهجوم عليه إبان الثورة، فبدأ كأنه قلعة
من قلاع العصور الوسطى، لا ينقصه سوى أخذود مملوء بالماء من
حوله وجسر معلق.. أدلف إلى الداخل بعد أن ركنت سيارتي خارجًا..
أتحرك في خطوات بطيئة مقاومًا رغبتني في تحطيم المكان على رأس من
فيه.. جاءني الجرسون الأنيق بابتسامة مصطنعة، قائلاً بصوت مُرَحَّب:
- أهلاً يا باشا، تفضل..

أوقفته قبل أن يكمل مقاطعًا:

- أبحث عن حسن البرنس.

دعوت ألا يكون حسن هذا قوادًا من الذين تعج بهم هذه الأماكن،
ولكن نظرة الجرسون والابتسامة التي داعبت شفثيه بينما يلقي عليّ
نظرة من نوع «إذن فأنت منهم» جعلتني أعلم ما نوع الشخص الذي
أبحث عنه.. أشار الرجل إلى أحدهم يجلس في أحد الأركان، ينظر إلى ما
حوله في تراخٍ بينما تراصت أمامه زجاجات البيرة الفارغة.. توجهت إليه
بينما أنفادي الأجساد من حولي كأني أخاف أن يلمسني أحدهم.. تغمز
لي امرأة شبه عارية الجذع بطريقة، حاولت أن تجعلها مغرية، لم تحرك
في أي رغبة سوى رغبتني في القياء.. وصلت إليه في النهاية فنظر إليّ في
تبجح وأمسك بزجاجة من الزجاجات المفتوحة أمامه، قائلاً:

- تحت أمرك.

- جئت إليك من طرف عادل.

ضيق عينيه محاولاً التذكر، فاستطردت محاولاً تذكيره:

- عادل.. عملية التوصيل.

ارتسمت ملامح الغباء على وجهه لحظات ثم تقلص فمه، وانفجر بعدها في الضحك، لتظهر أسنانه السوداء، قائلاً من وسط ضحكاته:
- اجلس يا رجل أنا فقط ألعبك.. عادل كان معي على التلفون منذ دقائق.

جلست مقاومًا رغبتني في رميه عبر المكان وتهشيم جسده.. ألعن ما على الأرض القوادين.. لا أرى عملاً في الدنيا أحط من تاجر الجنس، كأنه نخّاس الجاهلية لا يرى في الناس سوى عبيد، أو أسياد يدفعون مقابلهم.. هذا وأمثاله هم سفراء المدينة، تبعثهم المدينة الفاسدة لنشر العفن على الحوائط وفي الطرقات.. قال مغطياً على أفكاره بصوته العالي، محدثًا الجرسون الذي أرشدني إليه:

- بيرة هنا يا جمال.

- لا؛ أنا لا أشرب بينما أعمل.

نظر إليّ في استهزاء وهز كتفيه قائلاً:

- أنا لا أشرب إلا عندما أعمل.

انفجر في واحدة من ضحكاته العالية، أثارت حنقي أكثر، فاكتفيت بالصمت، بينما أكمل:

- حسناً، سأشرب مكانك أيها المتجهم.

لم يكذب ينهي كلماته إلا وخفتت الإضاءة في المكان، واشربت أعناق الرجال إلى مكان بعينه بجانب المسرح الصغير المقام في طرف القاعة.. وجدت حسن يغمزني قائلاً:

- أنت محظوظ يا رجل، نوال ستعتلي المسرح وستمتع برؤيتها.

نظرت إلى المكان الذي اتجهت إليه كل الأعين، فرأيت تلك النوال تقف مغمضة العينين مائلة رأسها إلى أحد الجوانب.. تشكلت لصورتها هالة شيطانية بمجرد أن وقعت عليها عيناها، انقبضت معدتي وبدأ رأسي في الدوران.. انطلقت أغنية مزعجة من السماعات التي ملأت المكان

من حولنا، فساهمت في إضافة اللمسات الأخيرة على الصورة المقرزة من أمامي.. فتحت عينيها بعنف مع بداية الأغنية فانطلقت الصافرات من الرجال المخمورين المتناثرين في المكان.. وقفت للحظات تنظر إلى ما حولها كصياد يعاين فريسته قبل الانقضاض عليها، وبدأت في تحريك رأسها ذات اليمين واليسار على الأنغام، بينما توزع نظراتها المفترسة على الجميع.. مرت لحظات على هذا الوضع، عيناى معلقة بالمشهد بينما حاجباى ينعقدان في سخط لم ينته إلا ووجدت نوال نقلت التمايل من رأسها ليشمل جسدها كاملاً.. بدت كثعبان ضخم في تمايلها، فلم ينقصها سوى نابين مملوئين بالسم، بينما تشجعها الصافرات والتهليلات من الجلوس للمزيد.. لم يخالج وجهها تعبير، فبدت كروبوت كل مهمته تنفيذ المهمة دون مشاعر.. بدت غير آدمية تحت كل طبقات الأصباغ التي غطت وجهها.. نظرتُ إلى وجوه الجالسين فبدأت صورهم تتغير في عيني، رأيت أحدهم يتحول إلى خنزير ضخم ملوث انطلقت منه صافرة طويلة، آخر رأيته يتحول إلى ذئب انطلق في عواء طويل إذ بدأت نوال في فك أزرار من ملابسها.. معدتي توشك على الصراخ ورغبتى في القيء تجاوزت حدود احتمالي.. يميل على أذني حسن قائلاً:

- نوال هذه اكتشافى أنا، لديّ أيضاً سميرة مثلها، ولكن من النوع الشعبي، تلتقط الرزق من الشارع.

لم تزدني كلماته إلا انقباضاً فشعرت كأنه الشيطان بنفسه يجلس بجانبى.. لفحتنى أنفاسه الثقيلة كالنيران.. ثقلت أنفاسى واشتد الدوار برأسى وأحسست بالهواء يقل من حولى.. جاهدت نفسى لئلا أخرج مهرولاً من هذا المكان، فقلت ضاغطاً على كلماتي مقاوماً رغبتى في القيء.

- ألم يحن الوقت بعد؟

نظر حسن إليّ وكأننى مجنون.

- وتضيّع على نفسك عرض نوال؟! لم تر شيئاً بعد.
اتسعت ابتسامته مكملاً:

- إنها أفضل استرتيز في البلد بأكملها.. اكتشافي.
أغمضت عيني محاولاً السيطرة على أعصابي ولكن علا صوتي دون
رغبتني:

- لا أريد التأخر على المستلم.
نظر لي في تشكك للحظات وألقى نظرة أخيرة على نوال، قائلاً في
سخط:

- حسناً أيها الغاضب، هيا بنا.. انتظرنى في سيارتك أمام الكباريه في
خلال خمس دقائق من الآن.

قمت مسرعاً كأن شياطين الجحيم تلاحقني لأهرب من هذا المكان..
وقفت على الباب أعب الهواء حتى هدأت نفسي مجدداً، واستعدت
رباطة جأشي، فتوجهت إلى السيارة منتظراً ظهوره وأنا أدعو في نفسي
ألا تحمل الليلة مفاجآت أخرى، ولكن ما رأيت حسن يمسكه في يده
قادماً نحوي، جعلني أوقن أن دعوتي لم تُستجب.

رأيت حسن قادماً إلى ناحيتي يمسك بيده يد طفلة صغيرة لا تتجاوز
عشر سنوات.. تلملم ملابسها على جسدها انقواء للبرودة التي غطت
الأجواء.. تبتسم ابتسامة مرتبكة فتظهر على جانبي فمها غمازتان..
كأنها من هؤلاء الأطفال الذين يرسمونهم في الصور واللوحات، لا تعترف
بوجودهم إلا إذا رأيت أحدهم في الحقيقة. فتح حسن باب السيارة
الخلفي لتدلف هي إلى الداخل مبتسمة في اتجاهي.. عقدت المفاجأة
لساني، فسيطر الصمت على جسدي ولم أنتبه إليها وهي تلقي على
مسامعي التحية.. كأني انفصلت عن عالمي وجلست هناك أشاهد ما
يحدث، كأني لست طرفاً فيه.. سمعت حسن يكلمها بصوت حنون لم
أظن أنه قادر على افتعاله:

- ستهبي مع عمو الآن كما اتفقنا، فنقذي كل ما يقوله لك.

ردت عليه بصوتها العذب البريء:

- حاضر يا عمو حسن.

استمر في تمثيل دوره براءةً مكملاً:

- أين قبلة عمو حسن إذن؟

طبعت قبلة طفولية على خد حسن، بينما عيناى تتناقلان بينهما في

اندهاش، لم يخرجني منه إلا كلمات حسن التي وجهها إلي:

- حسناً، يمكنك الذهاب الآن يا رجل.

أفلتت منه نظرة خبيثة ناحية الطفلة، مكملاً:

- وبلغ سلامي إلى الباشا.

* * *

القاعدة الثامنة: **فلتذهب كل القواعد إلى الجحيم.**

كأن كلماته حررت جسدي، فانطلقت بالسيارة في سرعة، بينما لم

تفك عقدة لساني.. سمعت صوتها من ورائي يتكلم متودداً:

- هل أنت صديق عمو حسن؟

حاولت تجميع الكلمات، فلم أنجح إلا في إطلاق غمغات متناثرة لم

تدل على شيء، ولكنها أكملت:

- عمو حسن هذا طيب جداً.. أعطاني حلوى كثيرة وأنقذني من

عصابة الأشرار الذين اختطفوني من بابا وماما.

كانت الأسئلة تتكاثر في عقلي، بينما تكمل كلماتها:

- اشترى لي ملابس جديدة وتركني مع طنط ميرفت، التي وضعت

لي هذه الأشرطة الملونة في شعري.

عليك اللعنة يا عادل! ما الذي ورطتني فيه؟

- ووصل إلى بابا في أقل من يوم واحد.. أنت ستأخذني إلى بابا الآن،

أليس كذلك يا عمو؟

لم أرد على سؤالها بشيء، فأكملت كأنها سمعت إجابتي:

- أكيد ستفعل، فعمو حسن لا يكذب أبداً.

أضحكتني جملتها الأخيرة، فبال تأكيد هي تتكلم عن حسن غير الذي قابلته.. هل اختطفها حسن مقابل فدية وأنا المكلف بإعادتها إلى أهلها؟ أم أنا متورط الآن في شيء أكبر من هذا؟ لا أسئلة، هذا كان الشرط الأساسي والوحيد لهذا العمل.

- أنا ندا.. ما اسمك يا عمو؟

أفأقني سؤالها من إعصار أفكاري، فنظرت إلى وجهها الملائكي وعينيها المتسائلتين في مرآة السيارة ملياً.. ابتسمت دون وعي مني ولم أجبها، فازدادت علامات الحيرة على وجهها.

- لماذا لا تتكلم؟ هل أنت أخرس يا عمو؟

ابتسامة أخرى تفلت مني عند سماعي كلماتها، بينما نقرت من عنوان التسليم وتلوح تلك الفيلا الضخمة في الأفق.. انطلقت هي في الكلام مرة أخرى، لكن هذه المرة لم أسمعها، إذ غطى صراخ الأسئلة في عقلي على كل الأصوات من حولي.. تنمو حبات العرق البارد على جبيني.. تتقلص أصابعي على عجلة القيادة بين يدي.. أحدث نفسي أن اهدأ.. لا يسمح بالتوتر في عمل مثل عملي، أنت متوتر إذن فأنت لست من تدعي.. أنت متوتر إذن فأنت من الشرطة.. أنت متوتر إذن فأنت جثة.. أتوقف عند باب الفيلا المغلق وأؤكد من العنوان.

- هل وصلنا يا عمو؟

تسألني الطفلة، فأهرز رأسي بهدوء وأطلع إلى ما حولي.. ذلك الانقباض الذي أشعر به في معدتي ينبثني بالكثير.. هذا مكان فاسد، أحد معاقل المدينة الفاسدة.. لا كاميرات مراقبة أو حراسة على الباب، وهذا معناه أن من يسكن بالداخل يعلم أنه لا أحد يجرؤ على مهاجمته.. هذا شخص اعتلى سلم الفساد حتى نهايته.. أمن شر المدينة لأنه أصبح من

أعدته.. أطلق بوق السيارة مرتين فينفتح باب صغير بجوار البوابة الرئيسية، ويخرج منه أحد أفراد الأمن متضخمي الأجساد.. أبتلع ريقى بصوت مسموع وأبتلع معه ما تبقى من توتري.. يميل على شبك سيارتي يتفحص وجهي، فأقول بهدوء مصطنع:

- أنا من طرف عادل.. جئت لإتمام التسليم.

يكرر كلماتي في اللا سلكي الذي يمسكه في يده، فأسمع الصوت الغليظ للطرف الآخر يقول في نبرة ارتياح:

- أخيراً! كنت أظنه لن يأتي الليلة.

ثم في لهجة أمرة - لرجل تعود على الأمر- أكمل:

- خذ البنت التي معه إلى الداخل ودعه يذهب.

نقذ الرجل ما قيل له في آية، بينما الطفلة تنظر إلى وجهينا في توتر.. انغلقت البوابة الصغيرة من ورائهم وظلت على حالي لدقائق، لا تزال نظراتي معلقة بالباب المغلق حتى حسمت قراري.. تحركت بالسيارة للخلف وأنا أهز كتفي، بينما أكلم نفسي قائلاً:

- فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم، لا شأن لي بهذا.

لا أسئلة هذه هي أهم وأكبر قواعدي.. لا أسئلة ولا ندم، فليعمل كل شخص ما يشاء ما دام يفعل به بعيداً عني.. أنا لست برقيب على الأشخاص ولست بأفضلهم كذلك.. أنا لست الفارس الأبيض، بل بالعكس، أنا أحارب لصالح الجانب الآخر كل يوم.. أنا جزء من وجه المدينة القبيح.. أنا أذيت أشخاصاً أكثر مما أنا قادر على العد، ولكنني دائماً ما تحججت بأن من أؤذيهم هم أكثر شراً مني.. لم أمد يد المساعدة أبداً لبريء ولكنني لم أمسه بالأذى كذلك.. أطلقت زفرة قوية حملت كل ما يعتمل في نفسي، وأنا أحاول التركيز في الطريق الخالي من السيارات.

- اللعنة!

أطلقتها بعلو صوتي وأنا أدير السيارة في الاتجاه المقابل لأتوجه عائداً

إلى الفيلا من جديد.. أنا أعلم أنني سأندم على هذا، ولكن قلبي يحدثني أن شيئاً مرعباً يحدث هناك.. نظرة حسن الخبيثة ونبرة الارتياح التي بدت في صوت الباشا صاحب الفيلا يطرحان احتمالات أكثر رعباً من أن أفكر فيها.. فلتذهب كل القواعد إلى الجحيم.

* * *

أقف بجانب السور أتنفس من تحت قناعي الذي لا يُظهر سوى عيني.. لا أريد لفرد الأمن الذي رأي أن يتعرف على وجهي الآن.. إن فشلت فهم يعلمون أنني من طرف عادل، الذي لا بد أنهم يعلمون مكانه، وهو لن يتورع عن إعلامهم بمكاني حفاظاً على رقبته.. لا أستطيع المخاطرة بالظهور بوجهي الذي كشفته لهم من قبل.. لم أحب أبداً هذا القناع، ولكنني دوماً ما وضعت بين حاجياتي للضرورة، ولا أفضل من هذا اليوم لاستخدامه.. عصاي الحديدية رفيق دربي ترتجف في يدي كأنها تمنعني مما أنا مقبل عليه، ولكنني لا أستطيع.. جزء مني ما زال يحاول الحفاظ على إنسانيته، وهذا الجزء هو ما يحركني الآن، هو ما يشعرني أنني ما زلت حيّاً.. أقفز إلى الناحية الأخرى من السور في صمت، وأتفقد ما حولي في حذر، إذ تدور عيناوي في الموجودات.. أرى فريدين من الأمن من بعيد فأتحرك ناحيتهم في سرعة.. ضربة كانت من نصيب كل منهم أفقدته وعيه في الحال.. واحد آخر رأي لحظات قبل أن ينهار على الأرض كالبالون المثقوب.

- ثلاثة فقط! هذا غريب.

قلتها لنفسي، ثم بررت لنفسي:

- ربما اليوم هو إجازتهم.

ألتفت حول الفيلا إلى بابها الخلفي الذي لا بد أن يكون مفتوحاً.. أرى فرد الأمن الذي فتح لي الباب يعد لنفسه بعض الطعام في المطبخ.. لزمه الأمر بضع ضربات زائدة حتى أنهيت أمره.. أتتحرك في سرعة

بين الحجرات ليصل إلى مسامعي صوت موسيقى هادئة من الطابق الثاني.. أتتبع مصدرها لأصل إلى حجرة مغلقة تشع منها روائح العطر والبخور.. تلصقت من فتحة الباب فهالني ما رأيت.. مشهد لم أظنه قد يزورني في أسوأ كوابيسي.. ندى الطفلة ذات عشر سنوات ملقاة على فراش، بينما شعرها الناعم يتشكل في هالة حول وجهها زادت من ملائكتيتها، بينما رجل شبه عار يتشمم وجهها في عنف.. كضبع نجس يتشمم ضحيته قبل الانقضاء عليها والتهامها.. فقدت عقلي وطار صوايي في تلك اللحظة.. لم أدر بنفسي إلا وأنا أكسر الباب بقدمي وأحمل الرجل لألقي به عبر الغرفة.. اشتعلت النيران في عيني واسودت الدنيا من حولي.. صرخة خرجت من حنجرتي بدت للحظة كالزئير.. يحاول النهوض فعاجلته بقبضتي في وجهه لتطاير ثلاثة من أسنانه.. يحاول الكلام، فكانت قدمي تستقر بين رجليه تسحق عضوه.. وقفت لاهثًا، أنفوس النار عبر صدري، بينما الطفلة على الفراش بلا حراك.. كم من طفلة احتفل بها هذا النجس في ليلة مثل هذه؟! كم من براءة هتكها إرضاءً لشهواته؟!

- كم؟ كم؟

سألته، بينما تضغط عصاي على حنجرته وأنا أشدها على جسده واقفًا خلفه.. يحاول التملص من مصيره فيطوح بيديه في الهواء، ولكن دون جدوى.. كأني أخنق مدينة الشر، شددت من قبضتي على عصاي ناظرًا إلى السقف في تصميم.. لم أقتل أبدًا من قبل، لكنني لم أفكر في هذا وقتها.. هدأت حركته حتى توقفت عندها، أغمضت عيني شاعرًا بالخلاص.. تركت جسده الفاقد للحياة يقع على الأرض لأطمئن على الطفلة.. وقفت للحظات صامتًا لأراها تتنفس، فخرجت مني زفرة ارتياح.. لا بد أنه خدّرها حتى ينهي جرمه، ولكن بعثني القدر لأمنعه وأمنع المدينة من الفوز هذه المرة.. حملتها بين ذراعيّ إلى الخارج

مستشعراً طهر روحها يغلف روعي المعذبة.

* * *

أوقفت سيارتي، بينما بدأت الطفلة في التملل في مقعدها.. فتحت
عينها في بطة قائلة:

- أين أنا؟

ابتسمت لها في حنان، قائلاً:

- أنتِ في أمان يا صغيرتي.

- أنت تتكلم يا عمو.. ظننتك أحرص.

ازدادت ابتسامتي فسألتني في حيرة:

- عمو في البيت الكبير قال لي أن أشرب العصير وأن بابا في الطريق

ليأخذني من عنده، ولا أنذكر شيئاً بعدها.

- لا تخافي يا صغيرتي، فبابا سيأخذك من عندي أنا.

- هذا أفضل، فأنا لم أحب عمو الذي في البيت الكبير.

نظرت حولها في دهشة، ثم قالت:

- أليس هذا مكان عمل عمو حسن؟ هل سيأتي معنا؟

- لا، أنا فقط سأبلغه شيئاً سريعاً.

- أبلغه سلامي يا عمو.. ما اسمك؟

نظرت إليها وأنا أفتح باب السيارة في شدة، قائلاً:

- لا تقلقي سأبلغه أكثر من سلامك، أما بالنسبة لاسمي...

أغلقت الباب بعد نزولي قائلاً:

- اسمي فارس.. عمو فارس.

obeikandi.com

بايرومينيا

وما عتبت على النيران تأكلني
إذا احترقت فإن الشهب تحترق
نزار قباني

obeikandi.com

- إذن، أخبرني ما شكواك؟

قالها وهو يرفع ساقه يضعها على الأخرى إما طلباً لمزيد من الراحة في جلسته أمامي، وإما ليضفي مسحة زائدة من الوقار على صورته أمامي.. ابتلعت ريقي بصوت عالٍ وأنا أفرك يدي في ارتباك.. حاول لساني أن يبدأ بالكلام ولكن قلقي منع صوتي من الخروج.. لاحظ ارتبائي وقلقي فارتسمت ابتسامة واثقة على وجهه، ونظر إلى الأوراق في يديه، ربما ليتذكر اسمي قائلاً:

- خذ وقتك يا خالد ولا تقلق من أي شيء.. اعلم أن أي شيء تقوله هنا يندرج تحت باب السرية المطلقة ولن يعرفه مخلوق سوانا. زحزحت كلماته صخرة ارتبائي الجاثمة على صدري قليلاً، ولكن لم تنجح في رفعها بالكامل.. أغمضت عيني لتدغدغ تلك الموسيقى الهادئة التي لا أعلم مصدرها- مسامعي.. تأتي من لا مكان ومن كل مكان.. استجمعت شجاعتي وتكلمت بصوت خفيض:

- أنا عندي مشكلة يا دكتور.

شبك أصابع يديه أمام وجهه في وضع من تلك الأوضاع التي يجيد فعلها الأطباء النفسيون، حتى لتظن أنهم يعلمونهم إياها في الجامعة.

- حسناً هذه بداية جيدة.. أكمل.

أطلقت زفرة طويلة حملت كل ما يعتمل بداخلي.

- بدأ كل شيء عندما كنت في الرابعة عشر.. أب حنون وأم مشغولة طيلة يومها في ترتيب أمور المنزل.. بعض المشاحنات بين أبي وأمي بسبب مصروف البيت في أغلب الأوقات، هو يتهمها بالتبذير وهي تعابره بقله ما يعطيها.. أقوم من نومي صباحاً.. أذهب إلى المدرسة.. يوم ممل مثل كل الأيام.. أتفادي المتنمرين الأغبياء الذين لم يتركوني يوماً دون أن يعذبوني بسبب بدانتني المفرطة.. أعود إلى البيت وأجلس

إلى المائدة، ليأكل ثلاثتنا في صمت ونحن نشاهد التلفاز.. أستذكر دروسي.. أفكر في بنت الجيران بعض الوقت وأكتب لها خطابًا، أمرّقه بعدما أنهيه بلحظات ثم أنام.. مراهق مثله كثير.

كأما قرأ عقلي، استوقفني قائلاً:

- ثم ماذا حدث ليفسد حياتك هذه؟

أغمضت عينيّ ربما لأكبّت دموعي، بينما المشاهد تتلاحق في مخيلتي.

- رجع أبي ذات يوم إلى البيت زائغ العينين مصفرّ الوجه لاهث الأنفاس، كأنه موشك على الإصابة بنوبة قلبية.. لك أن تتخيل كم الصرخات والشهقات التي خرجت من أمي بينما رأته على تلك الحال، بعد خمس أكواب من الماء المُشْبَع بالسكر بدأ أبي في الكلام.. كان يتكلم بسرعة فلم أفهم نصف ما يقوله.. تكلم عن الفساد، عن الرشاوى، عن المصنع الذي يفتح أكثر من ألف بيت.. تصب أمي كوب آخر من الماء بالسكر في فمه ثم يكمل.. يتكلم عن هؤلاء الحقراء الذين يريدون أن يضعوا بصماتهن على السكين، خيرهن إما أن يكون لصلّاء مثلهم وإما... لم يتوقف عن الكلام لساعة كاملة حتى تصورت أنه لن يصمت أبدًا.. في النهاية قال بوجه محمّر فليذهب أولاد الكلب هؤلاء إلى الجحيم وليفعلوا ما يريدون فلن أكون مثلهم أبدًا، ودخل لينام لليوم التالي بعد أن فرغت شحنته. توقف عن الذهاب للعمل نحو الأسبوع، ربما تفاديًا لأي صدام محتمل.. كان يجلس وحيدًا ينظر إلى الفراغ، بينما السجارة تحترق بين يديه دون أن تقترب من فمه.. تحرك من حوله فلا يشعر بنا.. ينظر إلى باب الشقة في تحفّز كأنه ينتظر شخصًا ما. لم يخب أمه، فبينما هو جالس جلسته المعتادة طرقت أياد ثقيلة بابنا، فقام في تناقل يجرجر خطواته كأنه يعلم القادمين.. انفتح الباب على شرطيين يسألانه أن يرافقهما إلى القسم.. لم يسأل أو يتكلم، فقط

استأذنهما في تغيير ملبسه ونظر إلينا نظرة زجاجية وخرج معهما في هدوء، لأعلم فيما بعد أن المصنع تم حرق مخازنه كعادة تلك المصانع وقت الجرد السنوي وأنهم يتهمون أبي بتدبير الحريق.. أتذكر جيداً نظراته لنا عندما زناه في القسم، بينما المحامي يحاول طمأنته.. نظر إليّ في عينيّ دون كلمات وابتسم ابتسامة مليئة بالأسى، ثم استدار عائداً إلى الزنانة.

فتحت عيني لأجده يدوّن بعض الملاحظات في أوراقه، فأغمضها مرة أخرى وأكمل:

- لك أن تتصور السيرك الذي تحول إليه بيتنا في الأيام التالية.. زيارات عائلية شبه يومية، يجلسون يشربون القهوة في صمت كأنه عزاء، ويسألون الأسئلة التقليدية عن المحامي والتحقيقات وكل هذه الشكليات.. تقسم لهم أمي أنه لم يخرج من البيت لمدة أسبوع فيهزون رأسهم في تصديق زائف، ولسان حالهم يقول وما أدرانا! قد اعترف عليه زميله في التحقيقات، بل قال إنه المخطط لكل شيء، وهل سنعلم أكثر من الحكومة؟ تبكي أمي لا لشيء سوى لإضفاء حس درامي على الموقف.. قد رأتهم ييكون في الأفلام والمسلسلات في المواقف المماثلة، فلا بد أن تبكي مثلهم.. ينصرف الجالسون بينما تركوا ظرفاً فيه بعض الأموال على المنضدة الكبيرة التي تتوسط غرفة المعيشة لزوم المصاريف، كما يقولون.. المحامي النصاب يخبرنا أن موقفنا ضعيف لكن اطمئنا فلا شيء مستحيل.. يهز رأسه في وقار مصطنع يقنعنا أنه يعلم الظروف ولكن القضية تحتاج إلى مصاريف كثيرة، مع ابتسامة لزجة منقّرة ترسم على وجهه.. تتكرر زيارات ذلك الشخص الذي قدمته أمي على أنه ابن عمها العائد من سفره.. يربت دائماً على كتفي ويحاول التودد إليّ بطريقة مبتذلة.. ترتدي أمي أفخر ثيابها وتضع العطر قبل أن يأتي.. يصافح أمي عند خروجه، فتطول مصافحته،

بينما يثبت عينيه بحولهما الخفيف في عينيها بنظرة نصف شهوانية.. تنقطع زيارات العائلة بينما تزداد زيارات ابن العم العائد.. ترتدي أمي السواد ونذهب إلى المحكمة لنجلس وأنظر إلى أبي في قفص الاتهام منكس الرأس كأنه يعلم القادم.. يخترق صوت القاضي البارد صدري، بينما يُحكّم على أبي بالحبس عشر سنوات في السجن على جريمة، أنا متأكد أنه لم يفعلها.. نظرت إلى أبي طيلة الوقت لكنه لم ينظر ناحيتي ولو لمرة واحدة، كأنه يتفادى أن تلتقي عينانا وهو في هذا الوضع المهين.. تعده أمي أن تزوره دائماً بينما هو لا ينظر ناحيتنا.. ملحت الدموع في عينيه لأول مرة في حياتي، قبل أن يختفي عن ناظري داخل عربة الترحيلات.

اختنق صوتي فتوقفت عن السرد، لأستمع للحظات إلى صوت احتكاك القلم بالأوراق في يديه.. انتبه إلى صمتي بعد لحظات فسألني، ربما ليحثني على مزيد من الكلام:

- وكيف كان شعورك وقتها؟

- مشاعري كانت متخبطة؛ لا أستطيع تحديد أي منها.. اختلطت بتغيرات المراهقة وفورة الهرمونات، لكن كانت هناك تلك اللحظة التي غمرني فيها شعور بعينه.. أجلسني أمي أمامها بعد الحكم على أبي بأسبوعين تكلمني عن المستقبل.. كيف أنه لا دخل ثابت لنا الآن وأنه لا بد من دفع الإيجار ومصاريف البيت، غير مصاريف مدرستي.. كيف أن أبي سيبتعد لفترة ليست بالقليلة، وأن مصاريف المحامي والقضية أكلت كل ما ادّخرناه على مر السنوات.. لن نعيش على المعونات طيلة العمر، تقول.. لا بد من أن نمضي بحيواتنا إلى الأمام وندفن على الماضي من ورائنا، تقول.. تشكر لي في العم مسعد ابن عمها العائد الذي وقف معنا إلى هذه اللحظة لأنه يعزها، حسب قولها.. ملعت عيناها للحظة ساعة أن جاءت على ذكر مسعد، وأفلتت منها ابتسامة دون أن تتحكم

فيها.. ساعتها علمت كل ما هو قادم.. تقول لي إنه لا يمكن تعويض أي
أبدًا، فهو رجل جيد، بل هو أكثر من جيد.. تتكلم عنه كأنها ماتت..
تقول إنها لا تتوقف عن التفكير في القادم الأسوأ، وإن الله قد بعث
إلينا بطوق نجاة من السماء في شكل العم مسعد.. تتوقف للحظات
لا تعلم كيف ستقولها، لكني سبقتها إليها.. رفعت عينان تجمد فيهما
الدمع وقلت بصوت مرتجف، ستتزوجيه، أليس كذلك؟ أو ماتت برأسها
في صمت واحة عينيها في الأرض.. لدقيقة كاملة ساد الصمت، بينما
نظري مثبتت إليها لا أعلم ماذا أفعل.. في تلك اللحظة سادني شعور
بالعجز لم أر مثله في سنوات عمري القليلة.. كنت أتمنى لو صرخت في
وجهها، أن أنعثها بالخيانة ونكران الجميل، أن أمنعها من هذا المسعد،
لكنني وجدنتني أبتلع كل ثورتي وأقطع الصمت الذي طال بصوت
مبحوح، قائلاً كلمة واحدة.. مبروك.

يغير من وضع ساقيه ويسألني في اهتمام:

- وكيف كانت أحوالك مع مسعد؟

انطبعت ابتسامة مرتجفة على شفتي.

- بعد أن حصلت أمي على الطلاق من أبي وانقضت أشهر عدتها
انتقل مسعد إلى شقتنا.. دفع مبلغًا كبيرًا لصاحب العمارة ليغير عقد
الإيجار باسمه.. لم يكن هناك فرح تفاديًا للمعضلة الاجتماعية.. جاء
بعد الظهر ومعه ثلاث حقائب كبيرة احتوت على ملابسه وحاجياته
وخرج، ليرجع في المساء ومعه مآذون أتم إجراءاته في سرعة، بينما تبتسم
أمي في خجل مصطنع.. أتى مسعد بعدها إلى غرفتي والأسى المصطنع
يغطي وجهه يخبرني أنه يتفهم مشاعري بالكامل وأنه لا يسعى إلى
إحلال أبي.. يريد أن يصبح صديقين كما قال.. لأسمع صوت أمي تنادي
عليه في دلال، فتبدلت ملامحه ولمعت شهوته في عينيه ذات الحول،
ليربت بعدها على كتفي ويتركني.. كم كرهته في هذه اللحظات! كم

كرهته وكرهت أُمي التي لم أستطع منع نفسي من نعتها بالخائنة كلما خلوت إلى نفسي! ومما زاد من معاناتي أن مسعد لم يحلو له مداعبة أُمي إلا أمامي.. كنا نجلس إلى مائدة الطعام فيأتي إليها يرتدي فالتته ذات الحمالات التي يتدلى منها كرشه، ويمد يده يلمسها أو يقرصها، بينما هي تضحك في ميوعة.. كأنه كان يستمتع برؤيتي لهما، بينما أُمي تظنني ما زلت صغيراً على فهم هذه الأشياء.

قاطعني في هدوء:

- وكيف أثر كل ذلك على تصرفاتك؟

- لك أن تتصور يا دكتور.. أصبحت قصير الفتيل، مستعداً للانفجار في أي لحظة.. مسعد لم يعاملني كصديق، بل دومًا عاملني كغريم أشاركه في حب أُمي، وأُمي أفنت أوقاتها في خدمة القادم الجديد لتنسائي تمامًا.. كانت دومًا خائفة من خسارته والرجوع إلى حالة الضياع والتسول، لذلك أصبحت شبه خادمة لأهوائه ورغباته، التي إن أطلقت عليها «منحرفة» ستقلل من قدرها بكثير.. حاولت أن أخفي من أمام أعينهما قدر الإمكان، كنت أتحاشى الوجود مع أي منهما طالما استطعت، ولم يبدُ على أي منهما الاهتمام بوجودي من عدمه.

ارتسمت علامات السخط على وجهي وأنا أستطرد:

- الغضب يا دكتور.. الغضب كان يملؤني طيلة الوقت.. تورطت في مشاجرات هذا العام أكثر مما أتذكر.. كسرت أسنان واحد من أقراني لمجرد أنه حاول السخرية مني، وآخر رميته في الهواء عبر الغرفة ليصاب في رأسه بعد أن نعتني بالبدانة.. غضبي كان يعطيني قوة مضاعفة مرات فوق مرات.. قررت فجأة أن أتنازل عن دور الضحية وأن أصبح أسوأ من أسوأ المتنمرين.. هل تعلم أكثر ما يفزعني اليوم؟ أن هذا لم يفزعني البتة وقتها.. كنت أتحوّل إلى أسوأ كوايبيسي دون أن يطرف لي جفن.. غضبي لم يكن موجّهًا إلى أقراني فحسب، بل إلى كل العالم

من حولي، أذكر مرة كنت أدلف إلى مدخل العمارة التي أقطن بها، فقفز قط كبير من وسط الظلام ليفزعني كعادة كل القطط السخيفة.. لا أعلم لم ذكرتني عيناه بعيني مسعد ذات الحول.. حملته من أذنيه وصعدت إلى سطح البيت وهو يصدر أصواتًا بدأت غاضبة وانتهت متوسلة.. وقفت بجوار الحافة ونظرت إليه في جنون، بينما القط يركل في هواء دون جدوى.. نظرت إلى عينيه المشقوقتين وأنا أتخيل أي أنظر إلى مسعد، وألقيته من فوق الحافة بينما أضحك صارخًا، يقولون إن القطط دائمًا ما تهبط على قدميها.. كنت أتحوّل إلى ما يشبه الأشرار الخارقين في القمص المصورة، لم ينقصني إلا وشاح أسود يرفرف من وراء ظهري وبعض الصواعق تظهر للحظات في السماء، بينما أملاً الدنيا بضحكاتي الشريرة المتقطعة.. كنت أتحوّل إلى مخبول بكل ما في الكلمة من معانٍ.

رجع في مقعده واتخذ وضعًا جديدًا زاده وقارًا، وتحدّث بصوت عميق كأنما يحاضرني:

- نوبات الغضب هذه ليست شاذة في هذه السن ومع كل ما مررت به...

استوقفته في سرعه قائلاً:

- لم أنته بعد يا دكتور، ما كان هذا إلا خلفية المشكلة الحقيقية.. ليتها توقفت عند نوبات العنف ورمي القطط من السطح.

لمحت حاجبيه يرتفعان في دهشة ممزوجة بالإعجاب، لا أنكر أي أحسست ببعض الفخر؛ لقد أدهشت الطبيب النفسي الذي من المفترض ألا يندهش.. بلل شفثيه بلسانه وأشار لي بيده أن أكمل.

- بعدها بدأت الرؤى.. كنت قد تجاوزت الخامسة عشر بشهرين، لا أنكر أن غضبي بدأ في النقصان رويدًا، وبدأت أتقبّل الحياة كما هي بعد طن من المشاكل في المدرسة انتهت بفصلي مرتين لثلاثة أيام

لم يعلم بهما أحد.. لم يكن أحد يسأل فلم أجد في نفسي الرغبة في المشاركة.. مسعد بدأ في السفر كثيرًا تلك الفترة، ربما مللاً من أمي التي نال منها أكثر مما يريد.. كانت تعلم أنه يخونها مع أخريات، ولكن لم تجرؤ على فتح فمها، وهو لم يهتم بمعرفتها من عدمه.. ربما أزال هذا الجزء العادل جزءًا كبيرًا من غضبي.. الخائن للخائنة، كنت أكرها كثيرًا متشفياً في أمي عندما أرى بكائها الصامت بينما تقف وحدها تنظر إلى بقع ملمع الشفافة في مناديله أو تشم عطرًا نسائيًا في ملابسه.. انتظمت حياتي ومعها دراستي التي بدأت في التعافي من التعثر.. ربما يومها كنت أمرُّ أمام المرأة على ما أتذكر لأتوقف فجأة محدقًا إلى انعكاسي الذي لم يكن كالذي ألفته، كأنني كنت أنظر إلى نفسي من خلال الماء.. صورتني مشوشة متموجة.. اقتربت من المرأة في رهبة وأنا أستعيد من الشيطان بلسان متخبط.. شيء ما بداخلي كان يدفعني للاقتراب بينما عقلي يصرخ أن أبتعد.. أحسست بحمل جسدي يخف من على قدمي كأني أطيء عن الأرض، أندفع لأتوحد مع انعكاسي المشوش.. شعرت كأنه يأخذ بيدي يشدني إلى عالمه.. اسودت الدنيا للحظات بينما يمرق جسدي من المرأة، فتحت عيني لأجدي اطفو في الفراغ وأراني من بعيد.. رأيتني أطيء عاري الجذع ناحية الشمس، لم يكن أنا بالضبط، بل كان نسخة معدلة مني.. ممشوق القوام قوي البنيان، كل ما تمنيت أن أكونه باختصار.. رأيتني أمد يدي إلى لهيب الشمس وأكبش بيدي من نارها.. أنظر إلى النار التي ملأت قبضتي في تحدٍ، التفتت إلى الورا فرآني ليرمقني باستهزاء.. رفع يده عاليًا بينما أنظاري معلقة بالنار المستعرة هناك، ثم بكل قوته رماني بما في قبضته ليدفع جسدي عبر المرأة عائداً إلى عالمي من جديد.

- وهل حدثت لك تلك الرؤى من جديد؟

- ثلاث مرات أخرى لا أتذكر منهم إلا واحدة، رأيت نفسي مرة

أخرى أستحم في حمام بركانية باستمتاع بينما لا يمسنى من نارها ضرر،
بينما تألم جسدي العادي من حرارتها لدرجة أنني لما أفقت وجدت
احمراراً في جلدي.

- ومتى توقفت تلك.. الرؤى؟

- ليلة رأس السنة.. أتذكر هذه الليلة تمامًا، كنت عائداً من الخارج
بعدها حضرت واحداً من تلك الدروس الخصوصية التي لم تفلح في
حشر معلومة إضافية داخل عقلي الذي يشغله الكثير.. كانت آخر
رؤيا جئتني في الليلة التي سبقتها.. فتحت الباب فسمعت بعض
الاصوات العالية بالداخل، كان مسعد وأمي يتشاجران.. دخلت بهدوء
لأنتصت على ما يقولان، فسمعت أمي تصرخ بانهيار أنني لا بد أن أعلم
كل شيء.. يرد عليها مسعد أنني ما زلت صغيراً وأن خبراً كهذا قد يقضي
على نفسي التي هي أصلاً خراباً.. تتهمه أنه بلا قلب، كيف يمنع
عن الابن خبر موت أبيه.. أسقط في يدي بينما أسمع ما يقولان.. لم
أدر بنفسي إلا وأنا أجرى إلى خارج البيت، أنزل السلام وأطلق قدمي في
الشوارع بينما دموعي تتهمر من عيني لا أكاد أرى منها شيئاً.. ظللت
أجري لا أعلم اتجاهي، حتى وجدته أمام بيت قديم أمامه عامود
نور وحيد وبعده الفراغ فتوقفت.. كان كل ما يلح على عقلي وقتها هو
سؤال وحيد، كيف مات؟ هل استسلم قلبه بعد كل ما عاناه من ظلم
وغدر أمتهم أمي بالخيانة؟ كان في أتم صحة قبل السجن فكيف به
ميتاً بعدها بأقل من عام؟ لا لم يموت، هكذا فكرت، بل قتل.. قتله كل
من آذاه وأجهزت عليه أمي بسكين الخيانة الذي غرسته في قلبه الذي
توقف.. قلت دموعي وهدأت ثورتي، فبدأت في الرجوع محاولاً معرفة
الطريق.. قضيت ساعة أو يزيد في الجري من شارع إلى آخر حتى وصلت
إلى هذا المكان المقفر.. وجدت أتوبيساً يمر بالقرب من بيتي فدلقت
إليه لأنهار على أول مقعد قابلني.. سمعت وقتها صوتاً في رأسي لم أسمع

من قبل.. صوتًا يشبه الصدا لو كان للصدأ صوت، كان يقول في رأسي ألا تظن أن هذا الأتوبيس سيبدو أجمل محترقًا يتصاعد منه الدخان.. نمرّ على مبنى ضخم في الشارع فأتصوره غارقًا في النيران بينما يحاول رجال الإطفاء السيطرة على الحريق فلا يستطيعون.. كنت غاضبًا من كل شيء، من أمي ومسعد، فساد القائمين على الأمور، من الشرطة التي أخذت أبي إلى حنفيه، من القاضي ذي الصوت البارد الذي حكم على أبي بالموت في سجنه.. كانت النار تلعو بداخلي ومعها تلعو صور النار التي أصبحت تغطي كل شيء أشاهده.. فجأة تملكنتني رغبة كاملة أن أحرق شيئًا.. رغبة لم أر مثلها في حياتي، كأن كل مشاكلي ستحل وسيعود كل شيء إلى حاله إذا حوّلت العالم من حولي إلى رماد.. تذكرت السيارة القديمة الملقاة في شارعنا دون إطارات أو أبواب، ربما ستصلح.. ترجّلت من الأتوبيس وكلي شوق إلى شارعنا كمن على لقاء بحبيبة قديمة.. وقفت أمام السيارة المتسخة وأخرجت علبة الثقب التي اشتريتها في طريقي.. أشعلت حفنة من عيدان الكبريت وأنا أنظر إلى ثمرة النار في انبهار، لأشاهد الزهرة البرتقالية الساخنة تشق طريقها إلى كل ما في السيارة.. في دقائق قليلة كانت النار تتراقص رقصتها المحمومة وتأكل كل شيء، بينما أنفاسي لا تتوقف عن اللهاث في حماس.. تلك الرائحة، الحرارة، رقصة النيران، صوت تأكل الأشياء.. استشعرت الحب لأول مرة في حياتي.. شعوري أن النار قد تخرج عن السيطرة في أي وقت -بل قد تحرقني أنا شخصيًا- كان يضاعف من إثارتي.. تلك القوة الخفية التي اكتشفتها في علبة ثقب صغيرة.. أحسست لحظتها أنني لا أقهر كأني أقوى من الدنيا بأكملها، بينما الصوت في رأسي يتأوه في شبق.. لأول مرة منذ فترة طويلة شعرت بالسعادة الحقيقية.. شعرت بالخفة في خطواتي، كأنها غسلت النار كل أحلامي، فعدت إلى البيت بابتسامة ملأت وجهي لانام إلى الصباح كإنسان جديد.

فقد وقاره قليلاً بينما سألني في انبهار:

- وهل كررت هذا مرة أخرى؟

- مرات عدة، كلما دفعنتني الرغبة واشتد بي الشوق أحرق بعض الأوراق القديمة في الشرفة أو أشعل البوتجاز فقط لمشاهدة النيران.. غيرتني النار وجعلتني ما أنا عليه الآن، مسالم وهادئ إلى أبعد المراحل.. توقفت عن الشجار وأنشأت صداقات، بل وفقدت الكثير من الوزن من بعدها.

- وما هي المشكلة في كل هذا؟

- ليلة رأس السنة يا دكتور، قمة رغبتني تأتي في هذا اليوم من كل عام.. يستيقظ الصوت في رأسي وأرى كل ما حوي رماداً.. لا تشبعني حفنة من الأوراق المحترقة أو مشاهدة البوتجاز.. يتنامى الجوع في داخلي عامًا بعد الآخر والأسوأ أنه بدأ يقنعني أن حرق مكان به بضعة أشخاص ليس بفكرة سيئة على الإطلاق.. إنه يحوّلني لقاتل يا دكتور وأنا لا أستطيع مقاومته بعد الآن، لهذا طلبت مقابلتك الليلة بالذات، فهي الليلة الموعودة وأنا لا أعلم ما أنا بفاعل.

نظر إلى وجهي للحظات بينما هو يجمع الكلمات.. تراجع في مقعده ثم قال:

- أتعلم يا خالد؟ أنت لست مريضًا بالمرّة.. هذا العالم يجب أن يحترق بالفعل عن بكرة أبيه.. لا عيب في محبوب يقابل محبوبه.. لم يكن من العدل ما حدث لك أبدًا وما تفعله الآن ليس إلا حقك الطبيعي في الثأر...

قاطعت كلماته صوت طرقات عالية على باب الغرفة ليبدو عليه الضيق.. انفتح الباب على أمي تكلمني:

- خالد، هل أنت نائم؟

- لا يا أمي أنا فقط أستريح بعض الشيء.

- هل معك أحد؟ لقد سمعت صوتًا يتكلم وأنا قادمة في اتجاهك.
أشرت لغرفتي الصغيرة وللكرسي الفارغ الموضوع بجانب المكتب،
قائلًا:

- هل ترين أحدًا هنا غيري!؟

نظرت إلى الغرفة في دهشة.

- ولكنني أكاد أجزم أنني سمعت.. المهم، عمك مسعد سيتناول عشاءه،

هل أحضرت لك شيئًا معه؟

- لا أنا سأخرج الآن وسأكل عندما أعود.

- ستخرج في هذا الوقت!؟

- لا تقلقي يا أمي فلن أتأخر، فقط زيارة لصديق قديم.

اتسعت ابتسامتي.

- مجرد صديق قديم.

هاتف منتصف الليل

الآن لا أحد يستطيع لمسك، فنحن دومًا مختبئون وراء المعدن والزجاج.. أعتقد أننا نفتقد هذا الإحساس كثيرًا، لهذا نصطم ببعضنا حتى نتمكن من الإحساس بشيء مجددًا.

Crash

obeikandi.com

انطلق الهاتف في الرنين قبل منتصف الليل بدقائق قليلة، في تلك الليلة فقط قبل أن تولد السنة الجديدة.. رفع أحمد السماعة في سرعة متمنياً أن يكون أحد الأصدقاء يهنئه بحلول السنة الجديدة، قائلاً تلك الكلمة الخالدة «ألو» ليصل إلى أذنيه ذاك الصوت العميق الرخيم، قائلاً أول ما قال:

- تعرف إن القدر ده شيء عجيب أوي! إن من بين ملايين الناس وتمر التليفونات أضرب نمرة عشوائية -أي نمرة- وتطلع نمرتك إنت بالذات.. بدمتك مش شيء يحير.. ليه القدر اختارك إنت بس؟ ليه مختارش أي حد تاني؟

- أيوة مين؟ مين حضرتك؟

- أنا؟ أنا ولا حد.. مجرد واحد بيتسلى أو يلعب، بس مين ميبالعش.. كلنا بنلعب، كلنا بنتسلى ببعض.
- اطلع من دول، أنا قافشك يا معتز.

- للأسف كان نفسي مخيبش ظنك.. تصدق إني عمري في حياتي ما عرفت معتز! غالباً معتز مش فاكر اسمك دلوقتي أساساً.. النهارده رأس السنة بقى وإنت عارف.

- أومال إنت مين؟

- إنت مبتسمعش؟ قتلتك أنا مجرد واحد يلعب.. واحد من اللي بيعاكسوا.. مجنون زي أي مجنون.. وكمان أديني بسليك في رأس السنة..
- أنا هقفل.

- لا إنت مش هتقفل، للأسف يا صديقي إنت عايز تتكلم زيي بالظبط.. زي كل الناس.. أنا النهارده بهديلك فرصة ذهبية، فرصة إنك تتكلم بجد، فرصة إنك تقول حاجة مع حد متعرفوش ولا يمكن هتعرفه.. كان ممكن ببساطة تقفل من غير ما تقول، بس لمجرد

إنك قلت «أنا هقفل».. كأنك بتشيل الذنب من على نفسك.. كأني أنا بكلمك غصب عنك، بس الحقيقة المُرّة إنك يمكن تكون مستمتع بالمكاملة، مستمتع بالكلام في وقت محدش فاكّر فيه حد.

- إنت مغمّقها أوي.. فكها دي الناس كلها فرحانة.

- هي غامقة لوحدها.. عارف! طول عمري بسأل نفسي ليه الناس بيحتفل إن فيه سنة عدت من حياتها، يمكن بيحتفلوا إنها خلصت وخلص! يمكن الناس محتاجة! محتاجة تحتفل بحاجة، أي حاجة وخلص.

- تعرف إني سألت نفسي نفس السؤال، بس دايمًا بفكر يمكن بيحتفلوا إن السنة الجديدة ممكن تكون أحلى.

- يمكن، بس إيه اللي يضمّلهم إنها تكون أحلى؟ بس هي كده الدنيا، مليانة أسئلة ملهاش إجابات منطقية.

- على رأيك، كثير.

- بس تعرف! أنا دايمًا بفكر في سؤال مش لاقيله إجابة لغاية دلوقتي، دايمًا فكرت إيه اللي ممكن يخلي إنسان يقتل؟ إنسان عادي زبي وزيك وزي أي حد.. ملوش أي سجل أو تفكير إجرامي.. إيه اللي ممكن يخليه يقتل ويمكن يقتل أعز الناس بالنسبة له؟

- وإيه الصعوبة في كده؟ مجانيين طبعًا!

- تعرف إن كلهم قالوا على عبد الستار مجنون؟

- عبد الستار مين؟

- عبد الستار كان جازنا.. موظف عادي، يمكن أقل من العادي.. حياته روتينية بشكل مفرع، يصحى الصبح، يفطر وينزل على شغله الساعة سبعة بالثانية.. كنت تظبط عليه ساعتك.. متجاوز وحياته هادية، أو يمكن فاكّر إنها هادية.. يرجع من شغله الساعة ثلاثة بالدقيقة.. وعمره ما فوّت ماتش للزمالك.

- زمالك؟! -

- آه الزمالك.. عمره ما كان متعصب في أي حاجة إلا موضوع الكورة ده، أهو بيفش غله يا أخي.. لغاية ما جه اليوم اللي اتكلم في التلفون من الشغل.

* * *

«أنا هتأخر النهارده شوية».. قالها عبد الستار في تأفف نظراً لأنه لم يخلف روتينه أبداً في مواعيده.
- خير يا خويا.

قاتها زينب زوجة عبد الستار في تساؤل.

- لا مفيش، رايحين نزور الريس بتاعنا بعد الشغل.. الراجل كبر وتعبان وعاييز اللي يقف جنبه.
- وده بيته بعيد؟

- ده قاعد عند ابنه نواحي بنها كده.. على بالليل كده هكون عندكم.

- طب يا خويا تروح وتيجي بالسلامة.

أغلقت زينب الهاتف وزفرت في تأفف، لتقوم من مجلسها أمام التلفاز وتقف أمام المرأة متأملة ملامحها ملياً، وذهنها يمتلئ بالعديد من الأفكار قلما تزاحمت بتلك الكثرة في عقلها الصغير.. تنظر إلى الساعة، أنها ما زالت الواحدة والوقت يمر بطيئاً.. تنظر إلى نفسها مرة أخرى في المرأة وتتبدى في عينيها الحسرة، وفي ذهنها انطلقت أصوات عديدة تملأ جنبات أفكارها.

- هتجوزوني لعبد الستار؟ ده أكبر مني وعنده عيال كمان.

- يا بنتي أهو ضل راجل ولا ضل حيطه.

- بقى الجمال ده كله ياخده عبد الستار!؟

- قسمة ونصيب بقى يا حاجة.

- ما هو إنتي لو تسمعي كلامي كنت هنعنغك.
انطلقت تلك الفكرة الأخيرة في ذهنها مغلفة بصوت ذكوري لينتفض
جسدها في قوة.. تنظر إلى نفسها وتدور أمام المرأة لتسترسل في أفكارها
مرة أخرى.

- بقى الجمال ده كله يتمتع بيه عبد الستار المعفن!
- نهارنا نادي إن شاء الله.. يخرب بيتك يا عبد الستار.. حد يسيب
القمر لوحده في البيت وينزل؟
- هتيجي.. هتيجي يا قمر.

ارتسمت ابتسامة على شفتي زينب وهي تمرر يدها عبر شعرها
وتنظر إلى الساعة مرة أخرى، لتتجه تلك المرة إلى البلكونة تقف فيها
تنظر إلى المارة وتتسلى بمنظرهم.. تنظر إلى الشرفة المجاورة وتتلاعب
بشفتيها ابتسامة، ليخرج حامد جارها إلى شرفته مرتديًا جلبابًا فضفاضًا
ويمسك بكوب شاي في يده.. يراها حامد فتتسع ابتسامته قائلاً:

- الله! هو القمر طالع بالنهار ولا إيه؟
تنظر زينب إلى الناحية الأخرى في سرعة وترسم على وجهها الصرامة.
- طب رد عليّ.. نظرة واحدة لأجل النبي.

تداري زينب ابتسامتها في سرعة.
- ده باينه عبد الستار مش قايم بالواجب ولا إيه؟
تزفر في شروء.

- يبقى مش قايم بالواجب يا عسل.
تتجه زينب إلى الداخل ليسرع حامد، قائلاً:
- هتسييني كده وتدخل وأنا واقف لوحدي؟
- ما تلم نفسك يا جدع إنت.. مش كده.
تستدير زينب إليه معتفة.
- أومال يبقى إزاي يا أبله!

يضحك ضحكة عالية وتضحك معه زينب تلك الضحكة العصبية لتداري اضطرابها.

- أيوه كده خَلِي الدنيا تضحك.

- إنت مش هتحرّم غير لما تدوق الشبشب.

- ده شبشبك أشيله فوق راسي يا قمر.

تبتسم زينب وتلين نوعاً مستندة على الإفريز.

- وبعدهالك يا جدع إنت!

- حامد.. محسوبك حامد.. أجيلك؟

تبتسم زينب مرة أخرى.

- يبقى هجيلك.

يختفي حامد من أمامها ليظهر على باب الشقة يرن الجرس.. تجري

زينب لتفتح الباب في سرعة قائلة:

- ينيلك! إنت إيه اللي جابك؟!

- إيه اللي جابني؟! ده أنا اتهرت كلام من البلكونات.. زهقنا من

النظري بقى، عايزين العملي.. هاتي حبة عملي بقى.

يميل عليها محاولاً تقبيلها، بينما تحاول التمتع دون رغبة فعلية

منها، كأنما عقلها يرفض ولكن جسدها البض يقبل في ترحاب.

في الوقت ذاته كان عبد الستار منهمكاً في قراءة الجريدة عندما

جاءه صديقه متضحكاً معه قائلاً:

- إيه، هتتغلبوا النهارده يا عبده؟

- إيه ده؟! هو النهارده إيه؟

- لا مش ممكن، إنت يا عبده ناسي الماتش؟!

- لا، النهارده إيه صحيح؟

- الأربع يا سيدي.

- أنا مفتكرتش خالص موضوع الماتش ده.. لا ده أنا كده همشي

بقى.. إنت عارف أنا مبفوتش ماتش.

- طب والرئيس؟

- ابقى اعتذرله بأي حاجة يا محمود، وكمان إنتو كثير مجاتش

عليّ يا أخي.

انطلق عبد الستار يحاول أن يصل إلى بيته قبل الميعاد المحدد لبدء

المباراة، ليفتح الباب ويسمع تلك الهمهمة بالداخل تأتي من غرفة

نومه المغلقة.. يمشي بهدوء إلى داخل شقته يحاول أن يفتح باب الغرفة

المغلق، ليرى بالداخل ذلك المنظر الذي لن يفارق مخيلته مهما حيا..

أن يرى امرأته بين يدي رجل غريب وهي تهمهم.

- لا لا بطل جنان يا حامد.

لم يدر عبد الستار ما يفعل إلا أن يتراجع في فزع إلى الباب، مستعيذاً

ذلك المشهد في رأسه مرات ومرات، لينطلق إلى الخارج محاولاً أن

يستجمع شتات نفسه من جديد، وبينما خرج من الباب انطلقت

زينب في الصراخ.

- يا لهوي! ده زي ما يكون فيه صوت برة.

قام حامد مفزوعاً قائلاً:

- صوت إيه يا وليّة؟ لا عبد الستار ولا العيال هنا.

- أنا عارفة بقى! اخرج.. اخرج دلوقتي.

- خارج.. خارج.. ده إنتي وليّة نحس.

انطلق عبد الستار يمشي في الشوارع لا يلوي على شيء.. كانت

الأفكار تعصف برأسه، وتلك الصورة الأخيرة تتكرر مرة بعد أخرى..

توقف فجأة وانطلق إلى بيته وفي رأسه اعتملت فكرة واحدة، نعم لا

بد أن يثأر لشرفه.

* * *

- وبعدين؟

قالها أحمد في سماعه الهاتف لمحدثه يستحثة أن يكمل الكلام.
- حط نفسك مكانه.. تقدر تقولي ممكن تعمل إيه؟

* * *

ولا تزال الأفكار تعصف برأس عبد الستار، ليجد نفسه فجأة أمام باب بيته القديم.. مليء بالاهتراء والنتوءات كحياته، الكذبة التي عاشها ظناً منه أنها الجنة.. دخل من الباب ليطالعه وجه زينب قائلة:
- إيه اللي أحرّك كده يا عبد الستار؟
ينظر إلى وجهها ملياً.. كم يحبها! كيف خانته وقد كانت كل الحياة؟
- عبد الستار! مالك؟

كيف يرد عليها بعد ما فعلت.. فكر أن يسحب سكيناً من مطبخه ويعمل فيها الطعن.. لكنه لن يفعلها، لن يقوى أن يفعلها.. يجب أن يحاول أن يبدو طبيعياً.
- مفيش.

قالها وهو متجه إلى الغرفة التي ظن أنها حملت كل أحلامه وسعادته الحقّة.
- طب مش هتاكل؟

قد أكلت الكثير من ثمر الخيانة.. هكذا فكر.
- لا مليش نفس.. أنا هنام.

يدس جسده في الفراش ويفكر كم تدنس هذا الفراش! عشر، عشرون، مئة مرة.. يسمع أنفاسها المضطربة تقترب من جانبه.. تنام بوجه الملاك بعد أن أخفت شيطانها الكامن.. تنظر إليه فيغمض عينيه في سرعة متظاهراً بالنوم العميق.. يرى المشهد في عقله مرات ومرات.
- لا لا بطل جنان يا حامد.

تنفذ دمعة من بين عينيه المغمضتين ويحاول ألا يظهر صوته كيلا تصحو من جانبه.. يحاول أن يستمع إلى صوت أنفاسها التي انتظمت..

ينظر إلى الساعة التي أشارت إلى الثانية بعد منتصف الليل.. يرفع جسده من الفراش بخفة.. قدماه على الأرض.. يهرول إلى المطبخ ويرجع حاملاً تلك الزجاجاة الكبيرة.. يقص من الشريط اللاصق ويضع منه على جانب فمها بحنان مبالغ.. يسكب الكيروسين من الزجاجاة التي بين يديه على جسدها والفراش في سرعة.. تصحو زينب مفزوعة.

- إنت بتعمل إيه يا عبده؟

كم يعشق عفويتها وقلة حيلتها! يحاول الكلام، يجد الكلمات تخرج من فمه ودموعه تملأ وجهه.

- ليه يا زينب؟ أنا حبيتك بجد.. كنتي كل حاجة.. لو قلت اسرق كنت سرقت عشان خاطرک، كنت ممكن أرمي نفسي في النار لو حبيتي.. ليه تخونيني يا زينب؟ ليه؟

الآن تفهم كل شيء.. تحاول الكلام لكن دموعها تسبقها.

- أ.. أنا.. أ...

- شششش.. معادش فيه فايده من الكلام.

يضع إصبغه على فمها محكمًا الشريط اللاصق ولا يسمع منها سوى الهمهمات.. ينظر إلى عينيها مرة أخرى راسمًا ابتسامة مليئة بالحب على وجهه.

- يمكن عمري ما قلتهالك، بس.. بحبك أوي.

قالها منهياً كلماته بأن أشعل عودًا من كبريت.. ينظر إلى النار في انبهار.. ابتسامة أخرى صدرت منه ورمى العود من يده.

* * *

- بعدها كل الجيران قالوا عبد الستار اتجنن بعد ما لقيوه قاعد بيعيط في جنب الأوضة والسريير مولع بهراته.

قالها المتحدث الغامض في التليفون، ثم فكر وأكمل:

- بس لأ، عبد الستار عمره ما كان مجنون.. يمكن الحب هو اللي

جننه.. يمكن الخيانة هي اللي طيّرت اللي فاضل من عقله، بس برضو لأ، مش الجنون هو الإجابة عن السؤال، أكيد حاجة تانية.

- يمكن مش الجنون فعلاً، بس لو مكانش الجنون ممكن يبقى إيه؟

قالها أحمد محاولاً أن يفكر.

- وكمان الجنون مش شرط يكون سببه الخيانة، فيه أسباب تانية كثير.

- خليني معاك، زي إيه مثلاً؟

- المخدر مثلاً.

- طب ما كل واحد فينا مختار المخدر بتاعه.. ناس مخدراتها

التليفزيون.. ناس تانية السُلطة.. ناس كثير مخدرها الجنس.. كلنا

مدمنين يا صاحبي وكل واحد عايش جوة إدمانه.. يبقى كلنا مجانين؟

- أنا مقصدش كده.. أنا قصدي المخدرات.. التوهان يعني.

ضحك الرجل المجهول ربما لأول مرة منذ بداية المحادثة، ثم قال:

- فكرتني بسعيد، كان دايماً يقول أحلى حاجة في الدنيا التوهان.

- وسعيد ده إيه حكايته كمان؟

* * *

- أحلى حاجة في الدنيا التوهان.

قالها سعيد في تلك الليلة جالساً مع أصدقائه يدخلون تلك السجائر

الملفوفة المحشوة، وأمامهم طبق مليء بالبانجو والتبغ، وسعيد يجلس

وسطهم وعلى وجهه تبدو علامات النشوة.

- أحلى حاجة في الدنيا التوهان.. وأفوق ليه وأنا من يوم ما وعيت

على الدنيا وأبويها في الإمارات؟ أفوق ليه وأنا شايف أمي عايشة في

النادي وبتعمل شوبينج؟ أفوق ليه وأنا عارف إن أبويها عايش حياته

بعيد عننا وكل أسبوع بيغيّر ست؟ أفوق ليه وأنا شايف أمي عارفة

أبوياء بيعلل إيه وبتدلله الأمل هنا اتنين؟ اتولدت ولقيت معايا فلوس زي ما أنا عايز، يمكن أكثر كمان.. أبوياء يرجع الأسبوعين اللي بيرجعهم في السنة يحشيلي جيوبى فلوس.. ميمعش عربية جديدة، ده غير مغامراته اللي بيحكيلي عنها.. تصوروا؟ عمره ما عرف أخباري، يتهيألى مكانش بيعرف أنا في سنة كام.. مكنة فلوس.. أنا أبوياء مكنة فلوس.

قال أحد أصدقائه في نفس الحالة:

- ماشي يا ابن مكنة الفلوس، ما تسلفني أبوك شوية.
أكمل سعيد وكأنها لا يسمع:

- حتى أمي عايشة مع صاحباتها.. لا يوم عرفت أنا نمت إمتى ولا صحيت إمتى.. اوعوا تفتكروا إن أصدقاء السوء والكلام ده همّ اللي خلوني أشرب! أنا شربت عشان عايز أشرب.. عشان مش عارف أعمل إيه.. بعدها لقيت أصحاب السوء دول و.. ولقيتكوا يا ولاد الـ... أهو مش عارف مصاحبيني عشان الكيف ولا مصاحبيني عشان فلوسي.. حتى البنات اللي بجهها، ساعات بحس إنها عشان سيجارة ممكن تفركش معايا.. اسمعوا الكلام، أحلى حاجة في الدنيا التوهان.. عارفين! ساعات بحس إننا شخصيات في رواية.

رد عليه أحد الجلوس:

- أيوه كده يا أبو السعد، ده إنت عليت أوى.. هو الصنف ده عالي أنا عارف.

أكمل سعيد:

- لا صحيح، ساعات بحس إننا مش ناس بصحيح.. شوية شخصيات في رواية، في فيلم.. ساعات بزعم بأعلى صوتي وأقول للمؤلف ليه خليتنى أنا المدمن اللي في الرواية؟ ليه مطلعتنيش ظابط ولا دكتور ولا حتى خليتنى الراجل اللي بيموت في أول الرواية؟ وأديني معاكو بلف وأشرب.. خدنا إيه يعني من الفايقين؟ لفلنا سيجارة تانية يا إتش.

رد عليه صديقه هشام:

- لا إنت كده أفورت يا سعيد.. قوم رُوْح أحسن.

- نقوم.. منقومش ليه! هو الباب منين؟

قام سعيد من مكانه يجرجر قدميه بلا وعي تقريبًا، يحاول الخروج من الباب ولكن كأنما تذكر، فقال:

- هشام، معاك تذاكر؟

- آه بس كده الحساب ثقل.

- يا عم بكرة أجيبلك فلوسك، هات بس تموين يومين.

يبحث هشام في جيوبه ويخرج ورقتين ملفوفتين بعناية، يسلمهما لسعيد، ولسان حاله يسأل: هل سيمر هذا اليوم على خير؟

* * *

دخل سعيد من باب شقتهم التي تقح في إحدى الأحياء الراقية، فطالعه وجه أمه تراقبه في قلق لينظر إليها في استهتار قائلاً:

- مساء الخير يا ماما.

لم ينتظر إجابتها ورمى بجسده على مقعد الصالة الوثير.. أغمض عينيه محاولاً الاسترخاء ليفتحها على وجه أمه التي جلست في مقابله.. يقوم من مكانه ملتقطاً تفاحة من طبق الفاكهة الذي ارمى على جانبه سكين.. يمسكه ويبدأ في التقطيع، لتعاجله أمه بالكلام:

- كنت فين؟

- ما إنتي عارفة إني كنت عند أصحابي، وبعدين من إمتى بتهتمي

يعني؟

يلقي بتلك الشريحة في فمه.. كم يكرها!

- كنت بتعمل إيه عند أصحابك؟

ينظر إليها في هدوء.

- كنا بنلعب.

أخرجت ورقة ملفوفة مليئة بالمخدر لتضعها أمام وجهه.
- النهارده لقيت دي في أوضتك وسط كتبك، إيه دي؟
ينظر إليها باستخفاف وابتسامة تلعب على شفثيه، ويعود من
جديد لتقطيع التفاحة.

- رد عليّ، إيه دي؟

- زي ما إنتي شايفة.

يعطيها ظهره ولا يعيرها اهتمامًا، مكملاً:

- هيروين.. مخدرات يعني.

- يا نهارك أسود! بتشم يا سعيد؟! آدي آخرة دلح أبوك فيك..

بتشم يا كلب؟! أنا لازم أقول لأبوك.

- ياه! طب يا ريت بقى وإنتي بتقوليله تقوليله على اللي بتعمليله

مع أونكل صلاح وأونكل محمود.. آه، وأونكل كريم كمان.

يقولها مواجهًا إياها بأكبر ابتسامة استخفاف ملأ بها وجهه.

- اللي بيته من إزاز يا... يا ماما.. كبري دماغك، وزى ما أنا بفوتلك

فوتيلي .

- أنا بيتي من إزاز يا كلب يا واطي؟ فاكر إني هخاف منك؟ ده

أنا أفعصك تحت رجلي.. ده أنا أدبحك بالسكينة اللي في إيدك دي..

بتشكك في شرفي يا ابن الـ...

- ها ها.. اشتهمي.. اشتهمي نفسك كده.. ولا تحبي أشتهم أنا؟

لم تتمالك أمه نفسها إلا وهي تنهال على وجهه بالصفعات وتمسك

به من ياقته.

- اوعي.. اوعي سيبيني.. يوووووووووه!

يطوح يده ذات اليمين فيكسر تلك المزهرية العتيقة على الطاولة..

يطوحها ذات اليسار فيقلب طبق الفاكهة على الأرض وهو ما زال متعلقًا

بالسكين في يمينه.

- قتلتك سيبيني.. سيبيني.

لم ير نفسه إلا وقد أغمد السكين في جانبها.. لم يشعر إلا وهي تتهاوى بين يديه والحياة تتسرب مع دمائها.. لم تحمله قدماه، فنزل على الأرض مع جسدها المتهاوى يللم شعرها بجانبها وتبدو على وجهه ملامح الذهول مما فعلته يده.

- ماما! ماما! اصحى يا ماما خلاص هبطل، والله هبطل.. ماما!
ماما!

* * *

- بس برضو مش ده الدافع.. يمكن دي حالات فردية زيادة عن اللزوم.. مش معقول مفيش أسباب تانيه للقتل.
قالها المتحدث الغامض في التليفون.

- يمكن الظلم ساعات يخلي إنسان يقتل، ساعات الظلم ممكن يحول إنسان لوحش؛ ميشوفش أي حد غير الي ظلمه.

* * *

اندفع ياسر على السلام وطفق يطرق باب الشقة التي استقر على بابها الرقم 7، لتفتح له تلك الفتاة التي ظهر من هيئتها أنها الخادمة، ليزيحها من طريقه قائلاً:

- هو فين؟ فين؟

- يا لهوي! الحق يا سيدي.

بدأ يبحث كالمجنون داخل الغرف حتى وصل إلى غرفة النوم، ليجده بداخلها مختبئاً وراء أريكة كبيرة.. يقبض عليه من ياقته.
- قوم.. قوم.. دائماً جبان.. دائماً عمرك ما تضرب الواحد إلا من ضره زي الكلب.

يخرج مسدساً من حزامه ويوجهه إليه ويدها ترتعشان.. الآن يحقق انتقامه الذي سهر ليالي طويلة يحلم به.. الآن يسلب منه حياته كما

سلبها هو منذ سنوات مرت عليه كقرون.. كم كان يتمنى أن يطيل
عذابه ليذيقه مما شرب من كأس الظلم! لكن للأسف ليس أمامه
إلا فرصة واحدة.. يراه يرتجف.. يعرض عليه أن يعوّضه، ولكن عما
يعوضه! يده ترتجف وفي ذهنه تتراءى عشرات الصور.. الآن يحقق
انتقامه.. يحكم التصويب و... انطلقت تلك الطلقة ليهز صوتها أركان
ذلك الحي الراقي.

* * *

- بس لأ.. تعرف! دائماً فكرت إن السبب الأساسي ورا كل المصايب هو
يمكن التفاصيل الصغيرة والتوقيت الغلط.
قالها المتحدث في الهاتف، ليرد عليه أحمد في عدم فهم.
- تفاصيل صغيرة إزاي يعني.
- تعرف إن لولا التفاصيل الصغيرة دي يمكن مرارة محمود كانت
تبقى عايشة لغاية دلوقتي؟

* * *

- اصحى يا محمود؛ إنت أتأخرت على الشغل.
قالتها منار زوجة محمود وهي تقف على طرف الفراش.
- محمود اصحى الساعة بقت تسعة.
- إيه؟
قالها محمود مفزوعاً، لينتفض من نومه.
- إيه! بالراحة.. مالك يا حبي؟ ده إنت من يوم ما اتجوزنا وإنت
عمرك ما عملتها وأتأخرت كده في النوم.. تعبان؟
- مش عارف، بس يلا أهى جت من فوق.. النهارده أجازة.
غاص في الفراش مرة أخرى ليكمل نومه.
- إيه! إنت هتنام؟!
- ممممممم.

- لا لا، قوم بطل كسل.. قوم افطر عشان هتوديني عند مامي.
- مامي؟! أنا كنت بقول أروح الشغل أحسن.
- حرام عليك! دي بتحكك أوي حتى.
- بس ده مشوار لغاية أكتوبر.
- يعني يرضيك يا حبيبي أروح لوحدي وإنت موجود؟!
- ماشي يا عم.. خلاص هتنزل المرة دي بس أنام شوية كمان.
- يلا قوم بقى بلاش دلج.

* * *

- محمود كان بيحبها أوي.
- أكمل المتحدث الغامض في التليفون.
- كان دايماً بيحس إنه في حلم وخايف يصحى منه.. كان كل ما يبصلها يحس بسعادة يعرفش ليه، بس يمكن ميفتكش حياته من قبلها.. يمكن بص لعينها وهو سايق.. يمكن فُكّر فيها.. يمكن فكر في حياتهم مع بعض.. يمكن تاه للحظة مشافش فيها العربية النقل من قدامه.. سمعها بتقول حاسب يا محمود بس يمكن متأخر شوية.. يمكن لحظة واحدة وقرار فرقوا في حياته و.. حياتها.. كان دايماً بيحب يشوفها، بس اللحظة اللي بعدها شافها غرقانة في دمها.
- وإيه علاقة الحكاية دي بالتفاصيل اللي بتقول إنها السبب؟
- ما هي الحكاية كلها في التفاصيل.. يمكن لو الريس بتاع عبد الستار مكانش تعبان أو عبد الستار مكانش اتصل بزینب.. يمكن لو صاحبه مجاش ونبهه للماتش.. يمكن لو كان عبد الستار أساساً مبيحبش الكورة.. يمكن زينب كانت عاشت.. يمكن كانت خافت تخونه وطردت حامد لو عبد الستار بس اتأخر خمس دقائق.. يمكن لو سعيد مكانش ساب المخدرات في أوضته.. يمكن لو كان أبوه مش في الامارات.. يمكن أساساً لو ملقاش طبق الفاكهة وعليه السكينة.. يمكن أم سعيد كانت

عاشت.. يمكن سعيد كان بطل مخدرات من الأساس.

- بس مش معقول كل حاجة في التفاصيل.

- يمكن لو محمود صحي بدري زي عادته.. يمكن لو أفنع منار إنها

متروحش لأمها.. يمكن لو العربية مدارتش من أول مرة واتعطل دقيقة

واحدة.. يمكن لو مكانش بيحبها أوي كده.. يمكن منار كانت عاشت..

يمكن كان رزقه ربنا بطفل جميل شبهها.. يمكن كان بقى لحياته قيمة..

يمكن مكانش قرر إنه ينيها في لحظة يوم رأس السنة.. يمكن مكانش

أخذ كل الحبوب اللي في اللعبة الفاضية قدامه.. يمكن مكانتش المكالمة

دي هتحصل من الأساس.

- مكالمة إيه؟

- المكالمة دي.. يمكن مكنتش فكرت إني أضرب أي نمره عشوائية أتسلى

لغاية ما المفعل يشتغل.. بيقولوا إن الحبوب مفيهاش ألم.. هنام، بس

مش هقوم.. أنا حاسس إن راسي بتدور، شكلها بدأت تشتغل.

- استنى.. استنى.. قول إنت مين ولا فين يمكن ألحقك.

- الحقوا نفسكو الأول.

- بقولك استنى اوعى تقفل.

- أقولك على نكتة؟

- نكتة إيه وهباب إيه بس!

اتسعت ابتسامه محمود وهو يقول:

- إحنا.. إحنا النكتة.

- آلو.. آلو.. رد عليّ.

سبعة

في القرن السادس الميلادي أنشأ البابا جريجوري الأول قائمة احتوت على السبع خطايا المميتة.. الحسد، الشره، الغرور، الشهوة، الكسل، الجشع، والغضب.

obeikandi.com

- استيقظوا أيها الخطاة فقد حان وقت الحساب.

ترددت تلك العبارة في غرفة ذات باب حديدي وحيد، فترددت بين الجدران الثقيلة للحظات بدا أنها ستستمر إلى الأبد.. بدا أن العبارة لم تؤثر على مسامع الأشخاص الستة الراقدين على أرض الغرفة، فتكرر الصوت الذي بدا كأنه يأتي من كل مكان.

- استيقظوا.

تلملت تلك المرأة ممتلئة الجسد منكوشة الشعر في رقدتها، رفعت جسدها لتجلس في مكانها تمسك برأسها وهي ما زالت مغمضة العينين.. عاقدة حاجبيها، فتحت عينيها ببطء لتتسعا في رعب إذ رأت الأجساد المتكومة من حولها.. ندت منها صرخة رفيعة أفاقت الرجل النائم بقربها، فقام واقفاً في سرعة ينظر حوله في كل الاتجاهات متخذاً وضعاً قتاليًا متحفظاً.

- أين نحن؟ ومن أنت؟

سأل المرأة في غلظة فلم ترد.. تحسس عنقه الذي شعر بما يثقله فاصطدمت أصابعه بالمعدن البارد الذي التف حول رقبته.. نظر إلى المرأة التي ما زالت جالسة، فوجد طوقاً مماثلاً حول رقبته.. دارت عيناه لتتفقد الأجساد الأربعة الراقدة من حوله في الغرفة الضيقة التي زين طوق معدني رقبة كل منهم، فتعرف إلى أحدهم.. تحرك في سرعة إلى تلك المرأة مليحة الوجه ونزل على ركبته ممسكاً بها من كتفيها ليرفعها عن الأرض.

- رشا! هل أنت بخير؟

لم تتحرك، فضرب خدها برفق بينما ترتاع ملامحه.

- رشا، أفيقي.. هل أنت بخير؟

فتحت عينيها برفق سائلة إياه:

- مراد، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظرت حولها في اندهاش لتقع عيناها على المرأة الأخرى، فسألتها

في تعجب:

- نيفين.. أين نحن؟

هزت نيفين رأسها في سرعة علامة على أنها لا تعرف، بينما تحرك مراد بين الثلاثة الآخرين يوقظهم في سرعة.. استيقظ اثنان منهم في سرعة بينما استغرق مراد خمس دقائق لإيقاظ الثالث ذي البدانة المفرطة، ودقيقتين آخرين لمساعدته على اتخاذ وضع الجلوس.. دارت أعين الجميع المندهشة في وجوه الآخرين، بينما الأسئلة المعلقة في الهواء لا تحتاج إلى من يطرحها.

- استيقظوا أيها الخطاة فقد حان موعد الحساب.

ترددت تلك العبارة عبر مكبرات الصوت الخفية التي زرعت في الجدران، فوقف الجميع ينظرون حولهم في دهشة، عدا أحد الرجال الذي بدا على وجهه الفزع أكثر من الدهشة.. أكمل الصوت بنبرة حازمة:

- دعوني أجيّب كل تساؤلاتكم قبل أن تتفوهوا بها.. أنتم الآن في مكان خاص أعددته مخصوصًا على مدى الأشهر الستة الماضية لاستقبالكم فيه.. بعضكم يعرف الآخر والبعض الآخر لا يعلم عن الآخرين شيئًا، ولكن كلكم تشتركون في شيء واحد.

سكت للحظات ثم أكمل:

- كلكم كنتم علامات سوداء في حياتي. كل منكم دمّر جزءًا في داخلي، واليوم جاء الوقت لأرد لكم الجميل كما أحببت دائمًا.. كل منكم يحمل خطيئة كبرى واليوم ستطهرون منها عبري.

تردد صوت سعال للحظات ثم أكمل الصوت:

- كل منكم يحمل طوقًا حديدًا على رقبتة غير قابل للفتح إلا

بمفتاحه الخاص، الذي أحفظ به معي، في كل طوق شحنة متفجرة صغيرة قادرة على تفجير رؤوسكم في جزء من الثانية، وهذا معناه أنكم لستم إلا لعبة بين أصابعي؛ ستنفذون كل ما أقوله بالحرف الواحد وإلا...

نظر الجميع بعضهم إلى بعض دون أن ينبسوا بكلمة، فأكمل الصوت:

- في هذه الحجرة باب وحيد يقود إلى مجموعة من الحجرات بعضها وراء بعض، وفي كل حجرة سيتم اختبار خطيئة كل منكم على حدة.. أحد الخطايا في النهاية سيتمكن من عبور خط النهاية بأمان، وسيجد مليون دولار عند باب الخروج.. مسابقة الخطايا كما أحب أن أسميها.

- ما الذي يجعلك تظن أننا سنفعل ما تريد أيها المأفون؟

نطقها مراد في غضب، فردت عليه نيفين مضيقّة عينها:

- انتظر قليلاً، فأنا أعلم صاحب هذا الصوت جيداً.. عزيز! هل

هذا أنت؟

- لن يرد عليك، فهذا الصوت يبدو مسجلاً.

قالها ذلك الرجل النحيف الذي نظر إلى الأرض من فوره مكماً:

- أظن هذا.

لحظات من الصمت خيمت على الجميع، حتى قال مراد في غضب:

- كنت أعلم أنني لا يجب أن أذهب إلى حفل رأس السنة السخيف

هذا.. كأس واحد من الخمر لأجد نفسي هنا، لا بد أن أحدهم وضع لي

نوعاً من المخدر فيه قبل أن أشربه.

قبل أن يتكلم مخلوق آخر تردد ذلك الصوت من جديد قائلاً:

- لديكم الآن دقيقة واحدة للخروج من الغرفة عبر الباب.

مع انتهاء كلماته أضاء ميقاتي إلكتروني فوق باب الغرفة المفتوح

يعد تسعاً وخمسين ثانية، ويسمع الجميع صوتاً هادراً من حولهم

تبدأ معه جدران الحجرة في الحركة نحو بعضها، منذرة بسحقهم بينها..

تحرك الرجل النحيل في سرعة ناحية الباب المفتوح دون أن يبدو عليه الاندهاش، بينما ساعد مراد والرجل الآخر الرجل الجالس على الأرض في القيام ليعبروا به الباب بعد أن سبقتهم النساء إلى الداخل.. انغلق الباب من ورائهم بعد مرورهم جميعًا، ليسمعوا صوت ارتطام جداري الحجرة ببعضهما من ورائهم لتتجمد الدماء في عروقهم.

دارت الأعين في سرعة في الغرفة الفارغة إلا من باب مغلق على الطرف الآخر للحجرة، وجهاز بدا ككرسي الكشف الذي تجده عند طبيب العيون، أمامه كرسي صغير ومعلق على الجهاز ورقة صغيرة كتب عليها بخط كبير «نيفين».. لحظات مرت في صمت بينما تقترب نيفين من الجهاز وقلبا يرتجف رعبًا، وكل الأعين معلقة بها.. تردد الصوت مرة أخرى من حول الجميع:

- لا بد أنك تعرفتِ على صوتي الآن يا نيفين، ربما تعرفتِ عليّ أسرع من زوجتي رشا، لأننا تربينا معًا منذ نعومة أظفارنا.. فكرت إكرامًا لصلة القرابة التي بيننا أن يكون اختباري الأول إهداء لك.

ابتلعت ريقها بصوت مسموع، بينما أكمل الصوت:

- الحسد هو خطيئتك الأزلية، تعلقت به روحك المسمومة منذ ولادتك.. كنت دومًا ما تنظرين إلى ما في أيدي الآخرين مهما كان ما في يدك أنت.. لم تقنعي أبدًا بما معك ودومًا ما سممت حياتي بنظراتك إلى ما أملكه متمنية زواله لصالحك.. حتى اليوم الذي جئت فيه تخبريني بخيانة زوجتي، لم يكن دافعك صالح، بل لأنه أرضى شعورك المريض بالتفوق.. عينك كانت دائمًا هي السبب في شقاء الناس، واليوم اختباري لك بأن أزعهما منك تطهيرًا لك.. أمامك ثلاثون ثانية لوضع وجهك القبيح في هذا الجهاز وسيقوم الجهاز بالباقي.. افعلي هذا وسينفتح الطوق الذي على رقبتك تلقائيًا، امتنعي ستموتين.. الخيار بيدك.

مع انتهاء كلماته أضاء ميقاتي فوق الجهاز يعد ثلاثين ثانية، بينما

ظهر مثقابان ربيعان من الجهاز يدوران في جنون.. انتقلت كل الأعين ناحيتها في ارتياح، فصبت غضبها على رؤوسهم.

- لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ لن أترك مجنونًا مثل هذا يملي عليّ ما أفعله.. فليذهب إلى الجحيم هو ولعبته، فأنا لن أفقأ عيني بيدي.

صاحت تكلم الحوائط من حولها:

- اقتلني الآن أيها المجنون.. هيا.

رأت الميقاتي يشير إلى خمسة عشر ثانية متبقية، فبدأت ارتجافة تزحف على جانب فمها وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة، قائلة في توسل:

- أرجوك يا عزيز انه هذا الجنون، هل ستقتل ابنة عمك؟

بدأ بكأؤها يتحول إلى نشيج بينما تتناقص الثواني الباقية في سرعة،

تقول في صوت صارخ:

- أرجوك.

- انتهى الوقت.. يبدو أنك أول ضحايا هذه الليلة.

تردد الصوت بينما أعلن الميقاتي نهاية المهلة، فأغمضت نيفين عينيها في قوة قائلة في ضعف:

- أرجوك.. من أجل أولادي.

سمع الجميع صوت فرقة مكتومة تناثرت معها أجزاء من رأس نيفين في أنحاء الحجرة، بينما أغمض الجميع أعينهم وانحشر صراخهم في حلقهم محاولين تفادي المنظر، لم يهلهم الصوت، فقال بألية إذ انفتح باب الحجرة الآخر بصوت عنيف وأضاء ميقاتي جديد من فوقه.

- الآن وقد عرفتم أي لا لعب، أمامكم دقيقة واحدة للخروج من هذه الحجرة.

دقيقة أخرى مرت وانغلق من ورائهم الباب الذي انفتح للتو، مع صوت احتضان الجدران لبعضها وانغلاقها على جثة نيفين التي تركوها

هناك.. كانت الغرفة مثل سابقتها لها باب آخر مغلق، علم الجميع أنه سينفتح مع موت واحد آخر، وتربض في منتصفها منضدة عالية زينها طبق كبير تراصت عليه أربع قطع كبيرة من الكعك، وورقة أخرى كتب عليها بحروف دامية «أمين».. دخلها الجميع مطرقي الرؤوس يتحركون في آلية، يفكرون في مصيرهم الأسود الذي قادتهم إليه هذه الليلة، التي بدؤوها في عوالمهم ولم يخطر في أسوأ كوابيسهم أن تنتهى بتلك النهاية.. غمغم مراد أخيراً:

- لقد فجر المجنون رأسها.

لم يرد عليه أحد، كأنهم لم يسمعه، فكل منهم مشغول في عالمه الداخلي، كأنه يوم القيامة والكل يقول «نفسى.. نفسى» لا يأبه بأحد.. لم ينحه الصوت فرصه لتكرار عبارته:

- أمين.. غريمي العتيد.. الاختبار الثاني من نصيبك أيها البدين.

ارتسمت ملامح الرعب على وجه الرجل مفرط البدانة عندما سمع اسمه.. لم تستطع قدماه حمله، فجلس في مكانه يستمع إلى بيان إعدامه.

- الشره يا عزيزي.. أنت تمثل الشره بكل معانيه، دوماً أصابك الشره وسال لعابك تجاه كل ما قد يدفعني إلى الأمام في عملي.. لم تتوانَ عن استخدام أساليبك القذرة ورأسك المريض لتقويض كل ما أسعى من أجله.. لم يفرحك شيء في هذه الحياة إلا أن تأخذ مني فرصة لتبتلعها في بطنك، ولم تستطع أبداً أن تتركني وشأني، مهما فعلت لأبتعد عنك أجدك أمامي تمد يدك وتأكل ما في يدي.. لم ينافس حبك تحطيم أحلامي إلا حبك للطعام، الذي جعل قدميك غير قادرة على حمل جسدك الثقيل.

ظل أمين محدقاً في الفراغ كمن ذهب عقله، لا ينظر إلى شيء بينما الصوت يكمل:

- دومًا.. ما أظهرت أدنى اهتمام بمن حولك، كأن طبقات الشحم حول قلبك منعه من الشعور بشيء، أو أن شرهك للطعام قضى على حبك لباقي الأشياء.. اليوم سنختبر حبك للطعام واهتمامك بالآخرين، أمامك أربع كعكات تمثل الأشخاص الأربعة الذين ترافقهم.. كُل الكعك وينتقل الجميع إلى الغرفة الأخرى دون أذى.. كلما تركت واحدة سأقتل شخصًا عشوائيًا مكانها، أو يمكنك الامتناع عن الأكل وساعتها سأقتل كل الآخرين بتفجير أطواقهم دونك وأعلنك فائزًا.. أمامك دقيقتان للقرار، ومعلومة أخرى نسيتها في البداية.. كعكك مليء بالدود من الداخل مثل اللحم العفن لضحاياك، الذي طالما تناولته في حياتك.. شهية طيبة. بدأ الميقاتي في العد تنازليًا، بينما تبادل الأربعة الواقفون النظرات بينهم في هلع.. ألقوا نظرة على أمين الذي لم يتحرك من مكانه وظل ينظر إلى الفراغ.. نصف دقيقة مرت على هذا الوضع أنهاها الرجل النحيل بأن تحرك إلى الطبق حاملاً قطعة من الكعك.. نظر إليه مراد قائلاً:

- ماذا تفعل يا رجل؟
- لن أترك هذا المخبول ينهي حياتي من أجله.
- هل ستجبره على أكل طعام مليء بالدود؟
- فليأكل طيبًا إذا لزم الأمر.. هل أنت مستعد لانفجار رأسك من أجله؟

كان الرجل الآخر قد انتهج نهج من سبقه وحمل قطعة أخرى في يده متوجهًا إلى أمين، الذي جلس بلا حراك والدموع متجمدة في عينيه.. اقترب الاثنان من الرجل الجالس بحرص بينما الميقاتي يشير إلى انتهاء نصف الوقت.. رفع أمين عينيه في وجوههم قائلاً بصوت مختنق:

- لن أكل الدود من أجلكم.

كأن هذه كانت الإشارة؛ قفز الرجل النحيل نحو أمين يحاول حشر

قطعته في فمه الذي قاوم باستماتة، فوجيء بالرجل الآخر يكبل يداً
من يديه يحاول حشر قطعته الأخرى في فمه الكبير، ومراد يصرخ:

- ماذا تفعلان؟

رد عليه الرجل النحيف:

- احمل قطعتك وتعال لمساعدتنا أيها الأحمق في تكبيل هذا الثور.

صرخة نسائية انطلقت وسط الأصوات، كانت لرشا التي قفزت في
وجه أمين ودفعت بيدها في فمه بقطعته التي أخذتها من الطبق..
نقل مراد عينيه بين المتصارعين والمليقاتي الذي أشار إلى نصف دقيقة
متبقية من المهلة.. أغمض عينيه وأخذ بقطعته في يده وانضم إلى حلبة
الصراع، مكبلاً يد أمين التي تحاول الإفلات.. الثواني تفرغ من المليقاتي
ولا صوت سوى اللهاث والصرخات المكتومة.. أمين يحاول التنفس فيفتح
فمه ليدفع فيه بالمزيد من الطعام.. خمس ثوان تبقت ومراد يحشر
ما تبقى في يده في حلق أمين، الذي قال بصوت خفيض لم يسمعه
أحدهم:

- سأموت.. سأموت.

تعلقت الأعين بالمليقاتي، الذي أعلن انتهاء المهلة بعد ثانيتين، ولم ير
أحد منهم وجه أمين الذي تحوّل إلى الاحمرار وعينيه التي سادهما
البياض.. قلب أمين الذي عانى معه الكثير من الأمراض لم يتحمل
المجهود فبدأ في الانهيار، بينما هو يحاول أن يخبرهم دون أن ينظروا
إليه.. انتهى الوقت وظل الوضع كما هو للحظات، تأكد الجميع فيها
من انتهاء الاختبار بنجاح.. قام الأربعة من فوق أمين الذي انغلقت
عيناه وارتخت أطرافه فتردد الصوت:

- مبروك؛ لقد نجحتم في الاختبار.. يمكنكم التحرك إلى الغرفة المجاورة
في خلال دقيقة من الآن.

انفتح الباب وتحركت رشا أولاً، تبعها الرجل النحيل، بينما ظل مراد

والرجل الآخر يحاولان إفاقة أمين، الذي أنهى قلبه مهمته وكف عن ضخ الدماء إلى باقى جسده.. ظلا يحاولان حتى قام مراد باختبار نبض أمين وتنفسه، بينما الجدران تنغلق عليهم في سرعة.. صرخت رشا من الغرفة المجاورة فيهما:

- هيا إلى هنا ماذا تنتظران؟

نظر مراد إلى الرجل الآخر قائلاً في ارتياح:

- لقد مات الرجل.

كانت المهلة تنتهى في سرعة والجدران أصبحت على وشك ملاستهما، فآثر الرجل السلامة وترك مراد جالساً عند رأس أمين هارباً إلى الغرفة الأخرى، بينما صرخت رشا:

- مراد.. لا تتركني وحدي.

تمالك مراد ما تبقى من أعصابه وانطلق مهرولاً بين الجدران الضيقة إلى الغرفة الجديدة، قافراً إلى داخلها، في نفس اللحظة التي انغلق الباب من ورائه لتسحق الجدران جثة أمين.. رمت رشا نفسها في أحضان مراد، دون اكتراث بزوجها الذي يشاهدهما، سائلة:

- أين الرجل البدين؟

رد مراد في سخط موجهاً عينيه إلى الرجل النحيف:

- لقد مات.. لا لقد قتلناه جميعاً.

- ولم تنظر إلى ناحيتي؟! لقد اشتركنا جميعاً في هذا، وربما الرجل مات جراء قلبه الذي لم يتحمل المجهود.. ثم لا تستعجل فرمنا لنحق به جميعنا قريباً.

قالها الرجل النحيف في غضب، ثم أضاف مشيراً إلى الجدران من حوله:

- إنها لعبته اللعينة وقواعده السخيفة.. هو من قتله وليس نحن.

ران الصمت على الجميع، بينما انتحبت رشا بين ذراعي مراد الذي

دار بنظره في الغرفة، ليرى حوضًا قديمًا معلقًا على أحد الجدران، تعلوه
مرأة صغيرة كتب في ورقة من فوقها اسمه.. ترك رشا بهدوء وتحرك إلى
الحوض كالمسحور، ليجد سكينًا صغيرًا في قاع الحوض.. أمسك بالسكين
بين يديه ونظر إليه في تساؤل، فتردد الصوت مجددًا:

- شعور جيد.. أليس كذلك؟ أمين المسكين مات من خوفه من
مجرد كعك عادي لظنه أنه مملوء بالدود، لا بد أنه يضحك الآن في
الجحيم، فهو كان يحب هذا النوع من الدعابات.. لا تنكروا أنكم شعرتم
بالتخفف بعد أن خلعتم قناع التحضر ولمستم الهدائية والحيوانية
بداخلكم.. الآن تشعرون مثلما أشعر.. الآن فقط تفهمون.

ترددت ضحكات قصيرة حولهم أنهاها الصوت بأن قال:

- والآن إلى اختبارنا التالي.. الغرور، أفضل الخطايا جميعًا، ولا أحسن
من مراد لاختبار ذلك.. وجهك الوسيم وجسدك الرياضي نجحا في
سحب رشا وشهوتها المفرطة إلى فراش الخيانة الزوجية.. لم يكن هناك
وجه للمقارنة بيني أنا الزوج العجوز المريض وبينك أنت الشاب
الوسيم المغرور.. اليوم فرصتك لإثبات حبك لرشا بالدليل القاطع..
فرصتك للتطهر من خطيئة الغرور التي ملأت روحك وسيطرت على
حياتك، ستضحى اليوم من أجل حبك ولا تضحية أكبر من ذلك.. لطالما
كرهت ابتسامتك المتعالية التي تعجب النساء، لذا أريد رسم أخرى
على وجهك.. ثبت النصل الذي بين يديك في فمك من الداخل واحفر
ابتسامة بالسكين تدوم طوال عمرك المتبقي.. شق فمك من الجانبين
وارسم ابتسامة لا تزول أبدًا.. اجبن كما أتمنى وسأفجر رأس عشيقتك
الخائنة أمام عينيك.. أمامك دقيقة واحدة.

بدأت الثواني في التقافز على الميقاتي الذي أضاء أمام الأعين، بينما
مراد ينقل نظره بين انعكاس وجهه في المرأة والسكين في يده.. خمس
عشرة ثانية مرت، بعدها صرخت رشا:

- افعليها أيها الجبان.

بهت من رد فعلها، فالتفت إليها قائلاً:

- من تعتين بالجبان أيتها العاهرة؟

- بعد كل ما قدمته لك تعتيني بالعاهرة؟! بعد كل ما قدمته من

أجلك تتركني للموت من أجل وجهك الثمين؟!

- لم تقدمي لي شيئاً، بل أنا من قدمت لك كل شيء، رغم أنني كنت

أنتزز منك ومن رائحتك.

نظرت رشا إلى الميقاتي فوجدت أن ثلاثين ثانية قد مضت، فجن

جنونها.. هجمت على مراد مطوّحة بيديها صارخة:

- سأفعلها بيدي أيها الجبان.. لن أتركك لتقتلني كما قتلت أمين.

لطمته بيدها في وجهه فأصابته عينه اليمنى في طريقها للوصول

إلى السكين، الذي يقبض عليه مراد بيمناه.. صرخة هادرة خرجت من

مراد الذي أمسكها من ذراعها محاولاً السيطرة عليها.. لطمة أخرى

منها إلى وجهه وصلت إلى عينه مرة أخرى فتطايرت الدماء منها هذه

المرة.. فقد مراد السيطرة على يده الممسكة بالسكين هذه المرة،

فتحركت لتحز عنقها في حركة سريعة.. اتسعت عينا الاثنان في اندهاش

بينما مراد وقف بلا حراك ورشا تهوي على الأرض، تحاول التنفس من

وسط دمائها التي أغرقت وجهها وخرجت من فمها.. تغرغر محاولة

التنفس بينما مراد لا يزال على حاله والدماء تتساقط من جراحه،

تختلط بدمائها التي تجمعت في بركة من حولها.. لحظات مرت من

الصمت قطعها الصوت قائلاً بألية:

- انتهى الوقت.. تحركوا إلى الغرفة المقبلة في خلال دقيقة من الآن.

نظرات مراد ما زالت معلقة بجثة رشا، بينما الرجلان المتبقيان

معه يجرانه جراً إلى الغرفة التي انفتح بابها.. يده ما زالت متصلبة

على السكين الذي نحرها والدهشة لا تفارقه.. تذكر كيف كانت تطبع

قبلة صغيرة على شفثيه كأنها تضيف إضاءها في نهاية كل لقاء بينهما، بينما تنغلق الجدران على جسدها الخاوي من الحياة.. وقف في الغرفة مع زميله لا يرى شيئاً سوى صورة عينيها بين تعبير الأم والاندهاش.. انطلق الصوت يغلفهم فلم يسمعه:

- الاختبار القادم من نصيبك يا سامي، الذي لم يمثل لي وجودك سوى الكسل مجسداً.. لطالما ظهرت على عتبتي مطالباً بإعانات مادية مع وعد بردها لا يتحقق أبداً.. لطالما أصابك الكسل عن إيجاد عمل أو الصبر على وظيفة.. لطالما كان يصيبك الضجر من حياتك فتأتي إلى مكتبي مذكراً إياي بصداقتنا القديمة، والمرة اليتيمة التي دافعت فيها عني طالباً سلفة جديدة، حتى حياتك لم تحرز فيها تقدماً يُلاحظ.. لم تتزوج أو تنجب أولاداً، لم تستثمر نقود والدك فضاقت منك بين الكسل والمخدرات.. عشت عالية طوال الوقت، ولكن اليوم نُدب النشاط في عروقتك.. كسلك يعيقك، لذا سأزيله من أجلك كخدمة أخيرة أقدمها لك.. أمامك جهاز تدريب كهربائي على الجري، لا أظن من ترهل جسدك أنك رأيت مثله منذ فترة طويلة.. المطلوب منك أن تجرى على هذا الجهاز لمدة خمس دقائق لا أكثر.. افشل في هذا وافجر رأسك.

ألقى سامي نظرة على مراد والرجل النحيف قائلاً:

- هذا يبدو سهلاً.

تحرك من فوره ليصعد على الجهاز الذي بدأ سيره في التحرك بهدوء، ليحرك قدميه معه، بينما عينا الرجل النحيف تتابعه في شدة.. ازدادت سرعة الجهاز شيئاً فشيئاً ومعها بدأ سامي يبذل مجهوداً أكبر.. لم تمر دقيقة إلا وكان الجهاز على سرعته القصوى وسامي يلهث محاولاً التقاط أنفاسه.. قدماه تتحركان بسرعة أكبر فأكثر.. نصف دقيقة أخرى واختل توازنه، فدفعه الجهاز إلى الخلف ليرتطم بالحائط من ورائه.. تكلم الصوت بطريقته الآليه قائلاً:

- فشلت للأسف.. الوداع.

- لا انتظر.. انتظر.

تبعها صوت الفرقة الخفيف لينتهي سامي في لحظة رافعاً يديه أمام وجهه، كأنما يقى وجهه الذي لم يعد هناك.. انفتح الباب كالعادة بانزلاقة إلى أحد الجوانب، بينما ردد الصوت في ملل:
- يمكنكما الانتقال إلى الغرفة المقبلة.. أمامكما دقيقة واحدة.

شد الرجل النحيف مراد من ذراعه، بينما ما زالت نظراته زائغة في ذهول.. انغلق الباب من ورائهما على غرفة ازدانت جدرانها برماح مدببة صغيرة ملأت كل شبر فيها، دون أن يكون فيها أي شيء آخر من أي نوع.. نظر الرجل النحيل من حوله في صمت بينما تردد الصوت:
- مبروك.. لقد وصلتما إلى مرحلة التصفيات النهائية.. الاختبار

هذه المرة لك يا فوزي.. الجشع.. لا أستطيع أن أصفك بغير ذلك، دوماً ما سرقنتي وأنت تظن أنني لا أعلم.. دائماً ما كنت تتفاخر بأنك قد تستطيع فعل أي شيء من أجل المال، لذا وضعتك معهم لأعطيك فرصة مثلهم، واليوم سنضع ذلك في الاختبار.. أظن أنك اندهشت قليلاً عندما وجدت نفسك مخدراً وملقى بجانبهم بعد أن ساعدتني في جلب كل منهم، ولكن أظنك تفهم الآن، فأنت لا تختلف عنهم في شيء.. انهبرت بأدائك مع الباقين عندما أقنعتهم بعدم معرفتك بشيء، مع أنك قد أشرفت بنفسك على بناء هذا المكان بناء على التصميمات التي أعطيتك إياها.. لم تسأل عن شيء أبداً في خلال أعوام عملك معي كمساعد شخصي لي، ولكن هل أنت قادر على تقديم التضحية الكبرى من أجل جشعك؟

كانت الحياة تدب في مراد شيئاً فشيئاً عندما سمع الجزء الخاص بمساعدة فوزي في بناء هذا المكان، فقال والغضب يتطاير من بين كلماته:

- هل ساعدت هذا المجنون في بناء هذا المكان ولم تقل ذلك منذ البداية؟

لم يجبه فوزي بينما ردد الصوت بجنون:

- اقتل مراد في خلال دقيقة واحدة وإلا انفجر رأسك.

أشهر مراد سكينه في وجه فوزي، بينما بدأ فوزي في الدوران من حوله.. تلاقت أعينهما وتمتم مراد:

- لقد قتلنا جميعاً معه.. أنت شريكه في هذا.

رد فوزي في هدوء:

- إنه العمل يا صديقي.. لا شيء شخصي.

أنهى كلماته بأن قفز في اتجاه مراد الذي حاول رفع السكين، ولكن فوزي الذي وافته قوة لم يعهدها من قبل رفعه عن الأرض.. مراد يحاول توجيه بعض اللكمات لم تفلح مع فوزي الذي جرى حاملاً جسد مراد ليغرزها في الجدار من ورائه.. اندفعت النصال الحامية تخترق لحم مراد في عنف، ليهتز جسده لثانيتين قبل أن يهدأ نهائياً وإلى الأبد.

أطلق فوزي ضحكة مجلجلة قائلاً بعلو صوته:

- لقد فزت.. لقد فزت.

أمّن على كلماته الصوت الذي تردد من حوله:

- تهانينا.. لقد أنهيت مهمتك بنجاح.

- هيا افتح هذا الباب واعطني مكافأتي.

فقد الصوت آليته واتسمت كلماته بالسخرية:

- عملت معي طوال هذه السنوات ولكن لم تفهم شيئاً بعد

للأسف.. لقد قلت نجحت في المهمة ولكنك لم تفز في مسابقة الخطايا.

- لقد قلت أن من ينهي السباق ينجح.

قالها فوزي صارخاً.

- لا.. لقد قلت إن خطيئة واحدة ستنتهي السباق، ولكنك نسيت

شيئاً لجهلك أيها الساذج.. الخطايا سبع وأنتم ستة فقط، الحسد والشهرة والغرور والشهوة والكسل والجشع.. خطيئة واحدة ناقصة، وهي الغضب، التي احتفظت بها لنفسي منذ البداية.. أنا الفائز حتى من قبل أن تبدأ المسابقة.

- لكنني ساعدتك في كل شيء منذ البداية وحتى الآن.

- أشكرك يا فوزي، لقد أحسنت أداء مهمتك الأخيرة، ولكن.. خدماتك

لم تعد ذات فائدة بالنسبة إليّ بعد الآن.

- انتظر.. انتظر.

- انتهى السباق يا فوزي وقد أسديت للعالم معروفًا بأن خلصته

منكم.. يمكنك الحسرة على ما تبقى من حياتك في خلال الدقيقة القادمة.

انطفأت الأنوار ليغرق فوزي في ظلام دامس، ويسمع صوت الجدران

تتحرك تقترب من بعضها في تودة.. تردد الصوت الخالي من المشاعر

مرة أخيرة قائلاً:

- انتهت اللعبة.

obeikandi.com

حارة الشيخ شحاتة

سر نجاح أي ساحر سببه حاجتين: ثقته في نفسه، وقوة اعتقاد الناس

فيه .

البيضة والحجر

obeikandi.com

لا أعلم لم قررت المغامرة بالنزول في هذا البرد وفي تلك الليلة.. ربما هو الملل لشخص شبه عاطل يحاول الفعل دون نجاح.. ربما كان السعي وراء فكرة جديدة تجعلني أكتب مقالاً أو اثنين بدلاً من ذلك الانسداد الفكري الذي أصاب عقلي وكلماتي بالضمور.. ربما كان إحساس ليلة رأس السنة الذي يغمر الناس بالتوق إلى المغامرة والتجديد والسعي وراء الاختلاف.. ربما كان كل هذا، أو لا شيء منه.. لم أعتد على الإجابة عن أسئلة مثل هذه، ولا أريد أن أبدأ الآن في تبرير أفعالي، تعودت نفسي على الفعل مؤجلة كل الأسئلة لما بعد.. أرى الفرصة سانحة أمامي فأحاول بكل جهدي اللحاق بها، فلربما تكون هي تذكرتي للخروج من إطار حياتي الخائفة، دون أن ينشغل عقلي بالأسئلة.. فرصة واحدة، جل ما أريد هي فرصة واحدة.. اليوم أتتني فرصتي على طبق من فضة.. تلك المحادثة الخاطفة التي سمعتها لدى وجودي في الجريدة الصفراء التي أعمل ولا أعمل بها.. رأيت حمدي نجم الجريدة اللامع يطرق باب مكتب رئيس التحرير متصنِّعاً الأدب والوقار، حتى ظننت أن هالة الملائكية ستبرز فوق رأسه لتغطي قرون الشيطان التي تبت فوق رأسه.. تابعته وهو يدخل إلى المكتب بينما أنا مشغول في طباعة بعض الأوراق في الطابعة اليتيمة المستقرة على بُعد خطوات منه.. شيء في داخلي جعلني أتصنَّع مراجعة بعض الأشياء، بينما تخترق أذني محادثته مع رئيس التحرير خلال الباب رديء الصنع الذي لم يستطع حجب صوتهما.. سكنت الأصوات من حولي كأنما الكون يتعاون معي، وسمعت حمدي يقول:

- حضرتك طلبتني؟

- ادخل يا حمدي، جيت في وقتك.

- خيراً!

- خبطة صحفية ممكن تغير حياتك كلها.
- أنا جاهز يا فندم.
- طب مش تعرف إيه هي الأول؟! قالها رئيس التحرير ضاحكًا ضحكته الرنانة.
- ما دام خبطة جديدة مش مشكلة، إن شا الله تكون مع العفاريت.
- لا الموضوع ده مش محتاج اندفاع.. لازم تتصرف بهدوء ومن غير ما حد يشك في حاجة.
- طب فهمني حضرتك.
- سمعت رئيس التحرير يتنحى كعادته قبل أن يلقي الأخبار الضخمة.
- من شوية جاتلي مكاملة من مصادر، بتقول إن فيه حارة فيها حاجات غريبة بتحصل.
- خير! إيه نوع الأحداث الغريبة دي؟
- ما هو ده اللي إنت هتعرفه.. الغريب إن كل المكالمات اللي وصلت لأكثر من جهة من الحارة دي متفتش على وصف معين لل... للحاجة اللي بتحصل.
- طب فيه أي جهات اتحركت؟
- الحقيقة لأ، الموضوع مبهم جدًا ومحدث بيتكلم، وللأسف كالعادة كل جهة بترمي المسؤولية على الثانية، ده غير إن الحكومة مش فاضية للحاجات دي.
- طب أحسن برضو.. عشان أبقى على راحتني.. حضرتك عارف الأمن بيعقدوا الدنيا أكثر من اللازم.
- مش لوقت طويل خد بالك.. شوف يا حمدي إنت من أحسن الصحفيين عندي وعشان كده أنا رشحتك للموضوع ده.. مش عايز أوصيك.

- متقلقش يا فندم.. ده إحنا تلامذتك.

رأيته يخرج مسرعًا مملفًا يحوي العديد من الأوراق.. وكأنها قرر الكون مساعدتي مرة أخرى اصطدم بأحد الزملاء في إسراعه، ليوقع الملف من يديه وتتطاير ورقة صغيرة تحت قدمي، كُتب عليها عنوان حفرته في ذهني لدى رؤيتي له.. ولم لا؟ قلتها في نفسي وأنا أتحرك بين الشوارع الضيقة نحو وجهتي.. ربما أثبت لرئيس التحرير جدارتي فيساعدني ذلك في الترقى أو يدفع مستقبلي الصحفي المضطرب خطوة إلى الأمام.. سيفهم أخيرًا مدى كفاءتي وسيوليني بعض الاهتمام.. من يعلم؟

بين غابة الشوارع أتحرك في سرعة محاولاً تذكر وصفة ذلك الفكهاني.. يمين في ثاني يسار ثم يسار في ثاني يمين، أم هو العكس؟ ظللت أدور في دوائر حول نفسي لمدة ساعة حتى أرهقني التعب فلجأت إلى أول مقهى صادفته.. وجدته شبه فارغ على غير العادة في ليلة مثل هذه وفي هذه الساعة، ولكنني كنت مرهقًا من التفكير في أي شيء.. أرجعت رأسي للوراء أسندها على الحائط مغمضًا عيني في هدوء.

- اصحي يا حارة وفوقي.. اصحوا يا نايمين.

فتحت عيني في سرعة لأرى مصدر هذه العبارة، فوجدت هذا الرجل المغطى بالأسمال.. معكّر الوجه قذر الرائحة طويل الشعر مشعث اللحية، مجذوب كما يسميه الناس.. دق بعصاه البالية الأرض في شدة مكملًا:

- ده بكرة بيجي اليوم شمس النهار هتبان، وهتكسر الضلمة.. ضلمة ملت البيوت.. ضلمة عششت جوة القلوب.. اصحوا ومتخافوش.. ولا ناموا.. ناموا وأنا هفضل سهران ومستني، هستنى الشمس تكسر الضلمة.

جذبتني كلماته فنظرت إليه بينما تحرك يتعدعنا مكملًا:

- اصحوا يا ناس وفوقوا.. اصحي يا حارة.. حي.. قيوم.

سمعت أحد الجالسين من ورأيي يتكلم قائلاً:

- نفسي بس أفهم الراجل ده عايز إيه؟

فردّ عليه آخر:

- أهو كل يوم على الحال ده لغاية ما خوتنا.

من أين يأتي هؤلاء المجاذيب. وإلى أين يذهبون؟ كأن الأرض تنشق

من تحتهم فيختفون حتى تأتي الفرصة فيظهرون من شق آخر.. أم هي

العيون التي تنفر من مناظرهم والنفوس التي تثقل لرؤيتهم تهيء

لعقولنا اعتبارهم شفافين من حولنا فلا نراهم إلا عندما يتكلمون..

أغمضت عيني مجدداً مؤجلاً تفكيري لوقت آخر.. تلتقط أذناي صخب

المقاهي المعتاد، فأسمع هذا الرجل الجالس أمامي ممسكاً بالصحيفة

يتكلم مع لا أحد، قائلاً:

- يقولوا الأسعار هترخص.

خالطه صوت من جانبي يقول:

- واحد قهوة مطبوط يا ابني.

سمعت القهوجي بصوته العالي:

- من عيني يا شريف باشا.

أصوات الأكواب المصطدمة بالمناضد الحديدية، قرقرة الشيشة،

زهر الطاولة المتدحرج، وصخب المتكلمين تداخلت في أذني صانعة ذلك

المزيج المائع عديم اللون الذي ساعدني في تجاهل كل الأصوات من حولي

ونقلها إلى خلفية عقلي.. سمعت صوت ارتطام عالٍ، ففتحت عيني في

سرعة ناظرًا ناحية مصدره، فسمعت ذلك الرجل الجالس بمفرده أمام

الطاولة المفتوحة يقول في لهجة ظافرة:

- شيش يك، وريني بقى هتطلع منها إزاي.

نظرت إليه في صمت للحظات متسائلاً في داخلي، من الذي يكلمه

هذا المجنون! بدأت في داخلي أصب اللعنات والسباب على رأسه، ولكن قاطعني صوت ذلك المجدوب بجانب أذني:

- اصحي يا حارة.. اصحوا يا ناس.. ده الشمس بكرة تبان.

من أين أتى هذا المخبول أيضًا؟ بدا النفور في ملامح وجهي لكنني حاولت إخفاءه، آخر ما أريد هو أن يظن هذا المخبول أنني أسخر منه، فالجنون يعطيهم قوة وعنف لن يفلح جسدي الهزيل في صده.. أنظر إلى الأرض محاولاً تجاهله، فأراه يتحرك ليقف في مواجهتي كأنه علم بما في رأسي.. ابتلعت ريقتي في صعوبة محاولاً السيطرة على أعصابي، ورفعت عيني إلى وجهه المتسخ قائلاً:

- أوامر.

لم يتحرك، وظلّت عيناه مسلّطتين على وجهي ككشافات آلمت روحي، فظننت أن هذه هي طريقته في استجداء المال من الآخرين، فقلت:

- مفيش فكة؛ ربنا يحنن عليك.

وقف هنالك كتمثال مفتوح العينين، فأثرت أن أعطيه بعض المال اتّقاء لشره.. مددت يدي محملة ببعض العملات المعدنية.

- ولا كلمة! مفيش! طب شوف، حظك من السما، خد يا عم خد.

لم يمد يده وظل على حالته، فصرخت منادياً القهوجي لينجديني.

- طب إيه؟ إنت يا ابني.

جاء الرجل سريعاً يسمح يديه في مريوله المتسخ، فلما رأى المنظر فهم كل شيء، فدفع المجدوب محاولاً تحريكه من أمامي.

- خير يا بيه؟ إيه يا عم ناصر.. شوف سكتك.

يرفع المجدوب عصاه الغليظة، فرفعت يدي فوق رأسي صارخاً:

- إيه؟ فيه إيه؟

رفع المجدوب عقيرته للسماء صارخاً:

- اهرب من عش الدبابير أحسن تتلدع وتتلقى المصير.. اهرب قبل
ما تفهم.. غمض عينيك واجري.. حي
- صلي على النبي في قلبك كده يا عم ناصر وامشي من هنا.
قالها القهوجي بعدما نجح في دفعه إلى الخارج، فسمعت صوت
المجذوب الذي ما زال يصرخ:
- غمض عينيك واجري.. اوعى تقرب عينيك من النار.. اصحوا..
مدد.
- أنهى كلماته فبدأ في التحرك إلى الشق الذي اختفى فيه من قبل،
بينما القهوجي يضرب كفاً بكف متابعاً الرجل بنظره.
- ما هي ناقصاك إنت كمان.
وجه كلماته إليّ معتذراً:
- لا مؤاخذه يا باشا.. راجل بتاع ربنا بقى.
- لا عادي حصلش حاجة.. بشوفهم كثير.. البلد مليانة.. ده كل يوم
الأيام دي كل ما تمشي تتكعبل في واحد.
- على رأيك، بس بيزيدوا.
إزاي.. مش فاهم.
- مال عليّ كأهنا يُسرّ إليّ بسر خطير:
- البركة يا باشا.. البركة قلّت من الحارة ومن الدنيا كلها يا باشا،
والناس زهقانة وتعبانة ولازم عقلها يخف.
- استرعت كلماته حاستي الصحفية، فسألته مستحثاً إياه على الكلام:
- إزاي يعني؟
- الناس اتجننت يا بيه.. الناس ماشية بتكلم نفسها في الشارع.
لا بجد.
- زي ما بقولك كده.. نص الناس اتجننت والنص الثاني قاعدين في
بيوتهم وخايفين ينزلوا لغاية ما الحكومة تتصرف.

أتكون هذه هي الحارة التي كنت أبحث عنها منذ البداية؟ هل
كنت أدور حول نفسي بينما أنا في المكان الذي أريده منذ البداية؟
مرت من أمامنا في ذلك الوقت شابة على قدر كبير من الجمال
تمشي في تؤدة، تبتسم في عذوبة.. تهمس في خجل إلى لا أحد، فقال
القهوجي مشيراً إليها:

- صدقتني يا بيه؟

قلت في غير تصديق:

- دي ماشية مع الهوا؟ وبتكلمه كمان؟

- الناس ضربت خلاص.

قالها القهوجي في سخط، فسمعت صوت رجل الطاولة من جديد.

- دش.. راحت عليك العشرة يا عم.

أشرت إليه متسائلاً في همس:

- والراجل ده تبعهم كمان؟

- مش بقولك يا بيه!

نظرت حولي في توتر، فالتقت عيناى بعيني الرجل ذي الجريدة،

فقال مبتسماً ناحيتي:

- بيقولوا الأسعار هترخص.

- وده إيه نظامه كمان؟

سألت القهوجي مشيراً إلى ذلك الرجل، فقال ناظراً إليه:

- محدش بقى عارف العاقل من المجنون.. هو حد الأيام دي عارف

العاقل من المجنون ولا الغني من الشحات! الناس كلها بقت شبه

بعضها.

- وإنت بقى تبع مين؟

- لا يا بيه الحمد لله لسه بعقلي.. تشرب إيه بقى؟

- هات شاي.

رأيت القهوجي ينظر إلى مقعد فارغ بجانبه متكلمًا إليه:

- شاي زي البيه؟ من عيني يا باشا.

انفتحت عيناى فى اندهاش، فغادرني القهوجي متممًا:

- ربنا يسترها علينا ونطلع منها بعقلنا.

نظرت حولي من جديد مقاومًا رغبتى فى الهروب من هذا المكان بأقصى سرعة، فوقعت عيني على رجل يبدو عليه الهيبة، سمعت القهوجي يناديه شريف باشا، يمسك بتليفونه على أذنه ويتكلم بنفاد صر:

- أيوه يا حاج.. لا موضوع ابنك ده مقدرش أعمل فيه حاجة.. ابنك مينفعش يا حاج.. مع السلامة يا حاج.

نظر ناحيتي، إذ أحس بنظراتي إليه سائلًا فى حدة:

- فيه حاجة؟

- لا أبدًا.. هيكون فيه إيه يعني!

وجهت بصري إلى أمامي فى سرعة، متممًا:

- ربنا يستر.

سمعت صياحًا يأتي من بعيد، فرفعت رأسي أحاول الرؤية لأرى شابًا تستطيع دون جهد أن تميز أنه بلطجي المنطقة، يمسك بتلابيب رجل ضخم ويصرخ فى وجهه:

- إيه اتعميت؟ مبتشوفش؟ مش تفتح وإنت ماشي؟

بادلته الرجل بالصراخ:

- لِمَ نفسك يا ابني إنت واتكلم على قَدِّك.

- لا ده أنا أتكلم زي ما أنا عايز، ولا أتخن تخين فى الحارة دي يسد معايا.

- ليه؟ هي سايبه!

أشار الشاب إلى الفراغ بجانبه صائحًا:

- إنت إزاي تزق صاحبي الزفه دي؟ ده إنت لو أعمى كنت حسيت.
- صاحبك مين يا خلل؟ استغفر الله العظيم! هي ناقصة مجانيين على الصبح؟ إنت مجنون يا ابني؟
- تبادل الرجل الآخر النظرات مع الفراغ أيضًا مكلّمًا إياه:
- لا خليك إنت برة الموضوع ده.. أنا هتصرف معاه.
- إنت اللي بتكلم مين؟ ولا هتعمل فيها مخاوي.. ده أنا أطلع عليك العفاريٓت.. هو أنا لسٓة هتكلم معاك؟
- فتح الشاب مطواته في سرعة وحرفية أمام أعين الجميع، فتدخل أحدهم مهدّئًا:
- إيه يا جماعة مش كده.
- سيٓيني.. سيٓيني وأنا هقٓطعه.
- قالها الشاب محاولاً الوصول إلى الرجل الذي احتمى بمن حوله، ويحاول فك الأيدي التي تكالبت عليه لتمنعه من الإتيان بجريمة.. بدأت أتحرّك في سرعة ناحيتهم لأحاول المساعدة في منعه عندما سمعت الصيحة الهادرة من الطرف الآخر للشارع:
- سعيد!
- ساد الصمت للحظات واتجهت الأنظار جميعًا إلى مصدر الصوت الذي غطى على كل الأصوات، لأرى ذلك الرجل فارع الطول قوي النظرات يرتدي جلبابًا أبيض ويمسك بمسبحة.. عيناه تومضان كأن فيهما شرر تناقضت مع ملامح وجهه الجامدة الخالية من المشاعر.. رآه الجميع فتخلى كل عما يفعله، حتى الشاب البلطجي الذي علمت أن اسمه سعيد أنزل مطواته وأغلقها في ارتباك وهو يتمتم:
- لا مؤاخذة يا شيخ شحاتة.
- نظر إلى الهواء أمام الأعين المذهولة وأكمل أمرًا:
- يلا بينا من هنا.

انفض الجمع كما بدأ في ثوانٍ وعدت لمقعدي في المقهى، لأرى القهوجي يهرول ناحية الرجل الذي ناداه سعيد بشحاة.. الشيخ شحاة.

- يا أهلاً يا أهلاً بيك يا عم الشيخ.. حصلتنا البركة يا شيخنا.. ده إنت من يوم ما سبتنا والدنيا اتخربت.. باركلنا القهوة وتعالى اشرب حاجة.

نظر القهوجي إلى نظراتي المتعجبة وهو يتحرك خلف شحاة في تقديس، فتكلم مشيراً إلى الرجل:

- الشيخ شحاة ده راجل كله بركة.. نواره الحتة واللله.. راجل محترم على حق ربنا.

قمت من مكاني متجهاً إليه، بينما أشعر بعينيه المشعّتين تثقبان روحي ذاتها.. مددت يدي مصافحاً ومرحّباً.
- أهلاً وسهلاً.

مد شحاة يده الباردة ليمسك بيدي في قوة.. كأن لجسده طاقة مخيفة شعرت بروحي تفشعر من ملمس يده على يدي وكأنها تنسحب من جسدي.. نظر إلى وجهي ملياً ويده لا تزال متمسكة بي حتى أفلتني في بطاء لأشعر بروحي ترجع إليّ مرة أخرى.. أثرت الرجوع لمجلسي مخفياً ما يعتمل في داخلي، بينما القهوجي الذي يتقدم شحاة يقول في سرعة:

- اتفضل يا شيخنا.. دي حصلت البركة واللله.

أتى الرجل الذي يقرأ الجريدة مهرولاً إلى شحاة، الذي اتخذ مجلساً مجاوراً لي، فلثم يده في سرعة قائلاً:

- يا أهلاً بيك يا بركتنا.. اتفضل.. نعناع على حسابي يا ابني.

قاطعه الرجل المهيب شريف:

- لأ، حاجة الشيخ شحاة عندي أنا.

أمام عينيّ المذهولتين وقف الرجل في تبجيل يسأل شحاتة:

- يقولوا الأسعار هترخص يا مولانا.

رد عليه شحاتة متعجبًا:

- يقولوا فين؟

- في الجرايد.. كل يوم يقولوا نفس الكلام.

رسم شحاتة ابتسامة على شفثيه، وقال بلغة العالم ببواطن الأمور:

- متقلقش.. هترخص.

تراقصت السعادة على وجه الرجل.

- ما شاء الله.. الحمد لله.

أكد شحاتة على قلة علمه صائحًا:

- والله أعلم.

رغم نفور نفسي المفاجئ من شحاتة اقتربت منه في هدوء.. رأيت

فيه الفرصة للإجابة عن كل أسئلتني، هذا رجل يعلم الكثير.. تحركت

بينما أسمع صوت المجدوب يأتي من بعيد كأنه نذير:

- متقرّبش عينيك من النار.. غمض عينيك واجري.. اجري من

جنون لجنون.. مدد.. مدد يا أسيادنا مدد.

لم أهتم بمحاولة فهم كلام هذا المخبول، وقدمت نفسي لشحاتة

قائلًا:

- أنا اسمي...

قاطعني شحاتة مكملًا جملتي:

- كمال جمال الدين.. صحفي شاطر ومشهور و... وطموح.

- طب كويس إنك عارفني، إنت قريتلي حاجة؟

- أنا أعرف حاجات كتير.. أكثر مما تتخيل.

تعجبت من معلوماته وارتسمت الحيرة على ملامحي، فسألته:

- إنت مين بالضبط؟

- لسه مش فاهم.. ولا مش عايز تفهم؟ أنا الشيخ شحاتة.. طب
مش إنت جاي عشان تعرف الناس مالها؟ أنا هو قُر عليك.. ارجع
محدث هيدلك.

- هو أنا باين عليّ أوي كده؟

- مش قلتلك أنا أعرف أكثر مما تتخيل؟

- طب ما تيجي نجيب من الآخر.. شكلك العاقل اللي فيهم.

- اسمع كلامي وارجع؛ محدش هيدلك.

- إنت بتقول إيه! دي فرصة عمري.. ده أنا لازم أفهم.. ده لو حصلت

أنا ممكن أقلب الحارة على اللي فيها عشان أفهم.

قام من مجلسه مواجهًا إياي قائلاً:

- يبقى اتفقنا.

- على إيه؟

- مش إنت عايز تفهم؟

هزرت رأسي في بطة أن نعم، فارتسمت علامات التحذير على وجهه

قائلاً:

- يبقى تسمع من سكات وتنفذ.. ويا تفهم يا متفهمش.. ولو

فهمت تفهم ليك لوحك.. دي شروطي.. اتفقنا؟

- م.. ماشي.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجهه، ورفع يده في هدوء ليضعها

على رأسي، وفي اللحظة التالية كنت هناك.

تايه وسط الضلمه.. تايه ومش فاهم.. فاكّر خروجك منها سهل؟

مسكين ابن آدم مهما تحذره ميسمعش.. اصحى يا ابن آدم وفوق..

اصحى من غفلتك وفتح عينيك.

أفتح عينيّ ببطء.. الدوار يعصف برأسي وكل عضلة في جسدي الممدد على الأرض الباردة تنبض بالألم.. أحاول النظر إلى ما حولي فتصطدم عيناى بالظلام المحيط من كل الاتجاهات، لا إضاءة في المكان سوى ذلك الشعاع الضعيف الذي يأتي من مكان سحيق فوق رأسي.. كأنني وقعت في بئر أو بركان سحيق، لا أرى ضوءاً إلا من فوهته البعيدة.. قمت من مكاني محاولاً عدم الوقوع مرة أخرى، بينما أتساءل بعلو صوتي.

- إيه ده؟ أنا فين؟

بدأ الدوار في الانقشاع ليحل محله الرعب، فصرخت بأعلى صوتي:

- يا جماعة يا اللي هنا حد يرد عليّ.. أنا فين؟!

وجدت اليد الباردة توضع على كتفي وصوت شحاتة في أذني:

- إنت في الحلم.

- يا سلام!

- بص حواليك وإنت تتأكد.

- حلم إيه يا راجل يا مجنون إنت؟ إنت وديتني فين؟

- وبعدين! مش عايز قلة أدب.. مش إنت كنت عايز تفهم؟ اعتبره

اجتماع مغلق.

- اجتماع؟!

- هنا آمن مكان في الكون كله.. على الأقل هنا محدش يقدر

يتصنت عليك.. هنا بس مبتخافش من حقيقتك.. هنا بس بيتحقق

المستحيل.. العاجز هنا بيقدر يمشي.. الأعمى يفتّح ويشوف.

في الضوء الضعيف أشار إلى الظلام المحيط في تباهي:

- هنا مفيش حدود.. تقدر تجري، تمشي على الحيطان، تطير لو

عايز، تقدر تكون أي حاجة متقدرش تكونها في الحقيقة.. كل يوم ممكن

تكون حاجة جديدة ومختلفة.. مفيش هنا كلمه اسمها ملل.

انخفض صوته كأنها يكلم نفسه:

- هنا أحسن بكثير.
- علا صوته مرة أخرى:
- وكمان عشان تقدر تشوف اللي عايز تشوفه.
- ما كفاية ألغاز بقى.. أنا معدتش فاهم حاجة.
- الصبر.. الصبر هو المفتاح.. اسمع ومنتكلمش كثير.
- أضاءت بقعه من أمامي دون أن أرى مصدر الضوء، فظهرت في وسطها مبخرة كبيرة تتوسط مقعدين، والدخان عطر الرائحة يتصاعد منها بغزارة.
- وده إيه ده كمان؟ وجه منين؟
- تقدر تقول ده مكتبي.. هنا هتشوف كل اللي حصل بالتفصيل، وبعدين جه منين مش مهم.. ففتح مخك.. إنت في حلم.. فاكرك؟
- أفتح مخي إيه! وبعدين...
- شششششش!
- أصل...
- ششششششش.. اسمع واتفرج بهدوء لو عايز تفهم.
- تركني في مكاني والحيرة تملأ ملامحي، وتحرك ليتخذ مجلسه فوق واحد من الكرسيين.. رمى المزيد من البخور في مبخرته وصاح:
- ادخلي يا بنتي.
- رأيت الشابة الجميلة التي رأيته من قبل تتكلم مع الهواء تتحرك بخطوات متخبطة قلقة، قائلة:
- سلامو عليكو يا عمو الشيخ.
- أشار شحاة إلى الكرسي المقابل له في وقار قائلاً:
- اقعدى يا فاتن.
- جلست بسرعة تتلفت حولها في قلق فطمأنها شحاة.
- خير! عينيك مليانه كلام.. اتكلمي متخافيش.

- أنا مش عارفة أقول إيه، بس قالولي إنك بتحل أي مشكلة.. بس...
- كملي.

انفتحت طاقة جديدة في السقف المظلم الذي لا أراه، لترمي شعاع ضوء على رجل مستلقٍ على فراش يبدو عليه الإعياء.. تحركت فاتن في سرعة إليه لتمسك بيده في قوة، صرخت:
- بابا بابا.. مالك؟

سعل الرجل الراقد في ضعف ونقل عينه بينها وبين امرأة أخرى تجلس باكية على طرف الفراش، ثم تكلم ببطء:
- شكلي خلاص يا فاتن.
ردت عليه المرأة في سرعة:
- متقولش كده يا خويا إن شا الله اللي يكرهوك.
ابتلع الرجل ريقه في صعوبة مكملاً:
- قرّبي يا فاتن.

اقتربت بوجهها من وجهه، فتلمّس ملامحها بحنان وجاهد لرسم ابتسامة على وجهه المتجمد.. أشار إلى المرأة الباكية بيد مرتجفة قائلاً:
- خدي بالك من جميلة يا فاتن.. دي دلوقتي في مقام أمك.
ظهر التغير على وجه فاتن للحظات، ولكنها أجابت في سرعة:
- حا.. حاضر يا بابا.

حول نظره إلى جميلة الباكية مستطرداً:
- وإنتي يا جميلة خدي بالك منها، لو حصلي أي حاجة.
- إن شاء الله هتخف وتقوم بالسلامة.
- لا شكلها خلاص كده.. شكلها....

جاهد الرجل لالتقاط نفس أخير زفره في هدوء، بينما نور الحياة ينطفئ من عينيه، وصراخ فاتن يملأ المكان:
- بابا بابا.

خفت الضوء حتى انطفأ، لتتحرك فاتن مبتعدة عن الفراش الذي لم يعد ظاهراً للأعين، متحدثة إلى شحاتة:

- كانت هنا بداية حكايتي.. أبويا مات وسابني مع مراته اللي مش فيقالى وعايزه تخلص مني.

ظهرت بقعة جديدة من الضوء فتحركت ناحيتها مكملة:

- بعدها ظهر خالد في الجامعة.

- خالد ده مين ده كمان؟

حدثت نفسي بالعبارة، فكأنما سمع شحاتة أفكارى؛ وضع إصبعه على فمه مشيراً لي أن اخرس ففعلت. رأيت شاباً من هؤلاء الذين تعج بهم الشوارع هذه الأيام وسط بقعة الضوء الجديدة.. ملابسه ضيقة على جسده وشعره كثيف منكوش، تحركت نحوه فاتن مشيرة إليه قائلة:

- ده كان خالد.

مرت بجانبه فأطلق صافرة إعجاب وتحرك وراءها، منطلقاً في الكلام كالسيل:

- هاي.. أنا خالد.. إحنا عندنا بارتي النهارده.. تيجي؟

توقفت فاتن مستديرة له في عصبية:

- إيه! فيه إيه؟

- إيه! عايز أتعرف على أحلى بنت شافتها عيني.

- لا والله؟!

- يبقى هتيجي البارتي.. دي هنا في الجامعة.

تركته وراءها وتحركت في سرعة بينما الضوء الوليد يخفت من جديد، قائلة:

- مش هاجي.

- هتيجي.

تحركت فاتن ناحية شحاتة مرة أخرى قائلة:

- مش عارفه ليه رحى الحفلة.. تقدر تقول كنت محتاجة أي حد يخرجني من اللي أنا فيه.. كان نفسي في حد يعوضني.. عرفت خالد.. مجنون.. مليان مغامرة.. جريء.

ظهر خالد مرة أخرى في بقعة جديدة من الضوء بجانب فاتن، التي قالت في غضب:

- إنت إزاي كنت بتكلم غادة بالطريقة دي؟
- يوووووو! دي مجرد صاحبة يعني.. عادي يعني.
- وهو اللي إنت كنت بتعمله ده عادي؟
- أمسك خالد برأسه في ألم.
- هتطيري الاضطباحة يا بيبي.. متزعقش كده.
- متستفزيش.

- جيرل.. إنتي اللي في القلب.. خلاص بقى.
هدأ صوتها بسرعة وسألته في خجل:

- بجد؟
- هو إيه ده اللي بجد؟
- لا والله؟!

نظرت فاتن إلى شحاتة قائلة:

- يمكن كنت بسأل نفسي ليه أنا مع خالد وأنا شايفاه كل يوم مع واحدة جديدة، بس كنت حاسة إني مختلفة.. كنت عبيطة يمكن، بس كنت بحبه وعاززة أغيره.. وفي يوم سألته إيه أكثر حاجة بتعجبك في.. أجابها خالد في بطء:

- إنتي كيوت كده.. وجميلة.
- وبس؟
- كفاية كده.. هتنهبي؟

- يعني عمرك ما فكرت في ذكائي.. مشاعري!
- ما إنتي جميلة.. محتاجة الحاجات دي ليه؟
تحرك إلى خارج دائرة الضوء التي بدأت تأفل في بطاء وهو يقول
في عصبية:
- إنتي هتخنفيني ليه؟ فكك مني؛ أنا مش فايقلك.. ذكاء إيه بس..
مع نفسك بقى.

وجهت فاتن كلامها إلى شحاتة من جديد:
- رمانى في لحظة.. يمكن كنت غلطانة من الأول.. بس من يومها وأنا
قافلة على قلبي.. خايفة من الرجالة.. خايفة من عيونهم اللي دايمًا
بتشوف الشكل ومتشوفش المضمون.

بقعة بعيدة من الضوء تكونت، رأيت فيها جميلة تنادي فاتن:
- تعالي يا فاتن فيه حد عايز يعزيكي.

ردت عليها فاتن في اندهاش:

- حد؟ حد مين ده؟ وعزا إيه دلوقتي؟ بعد إيه؟
- تعالي بس.

تحركت فاتن ناحية الضوء، فوجدت شابًا يقف بجانب جميلة، مد
يده إلى فاتن مصافحًا فور أن رآها:

- البقية في حياتك يا آنسة فاتن.

قدمته جميلة إلى فاتن:

- علاء ابن خالي الصغير.

- حياتك الباقية.

قالتها فاتن بلهجة رسمية، فتدخلت جميلة مرة أخرى في الحوار:

- علاء كان مسافر برة ولسه راجع، وقال لازم يعزيكي.

ساد الصمت للحظات لم يعلم أي منهم فيها ما يقول، حتى تكلمت
جميلة أخيرًا:

- طيب أنا هروح أعملك شاي.
- لا أنا لازم أمشي.. فرصة سعيدة جدًا يا آنسة فاتن.
- ميرسي.

أظلمت الدائرة المضيئة من جديد فوجهت فاتن كلامها إلى شحاتة:
- كانت أول مرة أشوف فيها علاء.. منكرش إنه عجبني للحظة، بس رجعت لنفسى وقفلت على قلبي من تاني، بس مكانتش آخر مرة.
سمعت فاتن صوت جميلة من دائرة الضوء البعيد وعلاء يقف معها:

- تعالي يا فاتن سلّمي على علاء، فاكراه؟ ما تاخذ فاتن تخرّجها شوية كده بدل الحبسة اللي في البيت دي.
- أنا موافق.. إيه رأيك يا فاتن؟ تحبي تروحي فين؟
- أي حتة.. يلا قومي روعي معاه.. قومي.

توجهت مرة أخرى إلى شحاتة:
- خرجنا وفرحنا.. شخصية قوية.. فلوس.. عربية.. وبدأ يظهر كتير في حياتنا. وفجأة لقيتني بفكر فيه.. فجأة لقيتني بتخلي عن القفل اللي كان على باب قلبي، وفي يوم بص وقال...
ظهر بجوارها علاء من العدم قائلاً في هيام:

- فاتن.. أنا الفترة اللي فاتت حاسس بحاجات غريبة من ناحيتك و... أنا عايز أتجوزك.
هزت فاتن رأسها في حسرة مكملة:

- كان المفروض ساعتها أفرح وأتنطط وأترمي في حضنه، بس لقيتني بسأله.. إيه اللي عاجبك في؟
رد عليها علاء بحيرة:
- إنتي.. إنتي.. جميلة.. أوي.
- بس كده؟

- و... و... وشكلك حلو.

على وجهها ارتسمت ابتسامة ساخرة قبل أن تكمل سردها لشحاتة:

- مش عارفه ليه في لحظة شفت فيه خالد من تاني.. قلبي ساعتها

كان بيتعذب.. عارفة إني مجنونة زي ما يقولوا عني، بس... لمجرد

إنه قال الكلمة السحرية، لمجرد إنه شاف جمالي قتلته لأنا آسفة

مش هينفع. كنت بتعذب وأنا بقولها بس مكنتش شايفة قدامي غير

خالد.. ومن ساعتها وخرج من حياتي.

ظهرت الخيبة على وجه علاء الذي قال قبل أن يختفي شبحه:

- أتمنى لك السعادة في حياتك.

ظهرت جميلة من الجانب الآخر تصيح في غضب ناحية فاتن:

- إنتي إزاي ترفضي عريس زي ده؟

- مبحوش.

- عملنا إيه بالحب يعني؟ حد يرفض علاء؟ إنتي مجنونة!؟

- إنتي اللي عايزة تخلصي مني.

- أيوه، وهو أنا هفضل جنبك طول عمري؟ منه لله أبوكي سابني

وأننا في عز شبابي.

- دي مبقتش عيشة.

ألقى شحاتة بالمزيد من البخور في المبخرة، وسألها بلهجة عملية:

- وطلباتك؟

اقتربت لتجلس أمامه من جديد:

- نفسي في حد يشوف حاجة غير جمالي.. نفسي حد يشوف

مشاعري، دماغي.. نفسي أكون أكثر من مجرد وش جميل.. عايزة حد

يكون حسّاس زي كاظم ورومانسي وجريء كده زي تامر.

زفرت في شدة وأضاف:

- نفسي في حد يحبني بجد.

- طلبك ملوش حجاب، بس طلبك مجاب.
- بجد؟
- استني الشهر الجديد وحببيك هيكون عندك أكيد.
- رفع عينيه إلى مكاني في الظلام وسألني في هدوء:
- ها فهمت حاجة؟
- اللي هي إيه بالضبط؟
- هز رأسه في أسف وألقى بالمزيد من البخور صائحًا:
- يبقى مفهمتمش.. ادخل يا شريف.
- دخل شريف الذي رأيته في المقهى يتحرك في خطوات سريعة، نظر إلى ما حوله في ازدراء ثم جلس أمام شحاتة واضعًا ساقًا على أخرى، محدثًا شحاتة بغطرسة:
- يلا اعمل الحركتين بتوعك.
- رد عليه شحاتة بهدوء المتمرس في هذه المواقف:
- حركات إيه؟
- افتح المنديل واقرا الفنجان، اعمل حجاب.. شغل النصب بتاعكو

٥٥.

- ما دام عارف إنه نصب.. جيتله برجليك؟
- قلت أجرب.. يمكن ألاقي الحل في الدجل والشعوذة بتاعتك.
- ألقى شحاتة بمزيد من البخور وبدأت لهجته تتحول للإنذار:
- كلامك مليون تجريح وغضبهم أكبر مني ومنك.
- لا.. لا.. لا.. إنت فاكربي أفندي ولا إيه.. أنا لا يهمني منك ولا من عفارتك.
- عارفك وعارف حكايتك.
- يا سلام! ده إيه الثقة دي كلها.. أنا الرائد شريف المنسي.
- كنت.

- وعرفت إزاي؟
- مش قلتك عارفك وعارف حكايتك! قول مشكلتك.
- تغيرت لهجة شريف وظهرت فيها الرهبة:
- والله ما أنا عارف إيه مشكلتي.. مش عارف إيه اللي جابني هنا من الأساس.
- تحرك من مكانه إلى دائرة من النور، ظهرت فيها مجموعة من الرجال، قائلاً:
- كنت من أشطر الضباط في المديرية كلها.. أنزل من بيتي وكأني مالك الدنيا.
- جرى ناحيته أحد الواقفين بسرعة:
- شريف باشا صباح الخير.
- أهلاً.
- والنبي يا شريف باشا كنا عايزينك توصي على الولد في اختبارات الحربية.
- وابنك بقى عايز يدخل حربية؟!!
- هيموت ويدخلها، الواد مزاجه يطلع ظابط، مع إن يعني...
- ظهرت نبرة الغضب في صوت شريف:
- مع إن إيه.. مالهم الضباط؟
- لا والله ما قصدي يا شريف بيه.. أنا بس كان قصدي...
- لا قصدك ولا قصدي.. خلاص هشوف.
- ربنا يكرمك يا باشا.. وعيني ليك طبعًا.
- أكيد طبعًا.
- تركه شريف وراءه في تحركه، فرآه آخر فابتسم في بشاشة:
- شريف باشا.. اتفضل عندنا شوية.
- قريب يا حاج إن شاء الله.

- والله لإننت جاي شارب حاجة.
- فرصة تانية إن شاء الله.
- ده إحنا تحصلنا البركة والله.. ربنا يعلي مراتبك يا باشا.
- تحرك شريف متجاوزاً الجميع، فسمعت شاباً يكلم الرجل الأخير.
- إنت بتعمل كل ده مع الرجل ده ليه يا بابا؟
- يا ابني قالوها قبلنا ”ارقص للقرد في بلده“.
- إسمعنى يعني؟
- ربنا يكفيك شر السلطة يا ابني.
- أظلمت الدائرة من جديد، بينما شريف يستطرد موضحاً:
- كانوا بيخافوا مني أنا عارف.. بس كانوا بيحترموني، وأنا عمري ما أذيت حد، حتى في بيتي.
- ظهرت امرأة أمامه فصاح فيها:
- الأكل يا هانم.
- حاضر يا حبيبي.
- تحركت مهولة فاستوقفها شريف:
- استنى عندك.
- خير!
- أنا اتصلت بيكي ثلاث مرات النهارده على البيت.. مردتيش ليه؟
- قصدك إيه؟
- قصدي كنتي فين يا هانم؟
- هو إيه الي كنت فين! أنا طهقت بقى من العيشة دي.
- أعطته ظهرها متأهبة للرحيل عنه، فارتسم الغضب على وجهه:
- إنتي اتجننتي يا هانم! بتمشى وأنا بكلمك؟ ردي على سؤالي.
- أنا كنت في البيت طول اليوم.
- إنتي كدابة.. شكله إيه؟ أحسن مني في إيه؟

صمتت المرأة بينما اندفعت على وجنتيها الدموع، فكرر سؤاله في شدة:

- ردي عليّ.. اسمه إيه؟

فتحت عينيها في هدوء متكلمة:

- طلقني يا شريف.

هربت إلى الظلام من حولها، فتكلم شريف مرة أخرى مدافعاً عن

نفسه:

- وفيها إيه لما أغير على مراتي زي الناس؟ بس برضو عمري ما

أذيت حد.. كل ده لغاية ما جه اليوم المشؤوم.

تكونت بقعة جديدة من الضوء ظهر بداخلها رجل يرتدي بزة

رسمية، كلم شريف محيياً:

- شريف باشا.. إيه أخبارك؟

- تمام الحمد لله.

- مروّح دلوقتي؟

- آه، ما تيجي معايا.. أنا راكن الناحية الثانية.

- لا أنا ورايا شوية حاجات لسه.

- اسمع الكلام.. هعزمك على الأكل.

- لا خليه في يوم تاني، أصل عندنا شوية عيال النهارده ولسه

بنظبطهم.

- بالتوفيق يا باشا.

أعطاه شريف ظهره ليتحرك خطوتين للأمام.

- شريف باشا.. استنى أنا نسييت.

استدار شريف في سرعة لينظر إليه، فرأيت السيارة التي ظهرت من

وسط الظلام لتقترب منه في سرعة، وتداخل صوت الفرملة الشديد مع

صراخ الرجل:

- حاسب.. حاسب.

ابتلع الظلام كل شيء من جديد لأسمع صوت شريف:

- حادثة.. سبت البدلة.. مقدرتش أستحمل أكون ظابط من غير

دراع.. دراع صناعي بلاستيك بخبيته عن عيون الناس.. ومن يومها وحياتي
اتغيرت.

رأيت الرجل الذي يبحث عن واسطة لابنه يتحرك من جانب
شريف الذي وقف في ذل، ارتطم بشريف في حركته فصرخ في وجهه:
- مش تفتّح يا أخي!

رفع شريف عينيه في أسي، فانطلق الرجل في وجهه:

- مش كفاية الواد بندورله على واسطة جديدة! اوعى من وشي.

تحرك شريف إلى ناحية شحاتة، فانبثقت دائرة من الضوء في طريقه
يجلس فيها الحاج محمود وابنه، فابتسم له شريف متوجّها نحوه:

- سلامو عليكو يا حاج محمود.

وضع الحاج محمود ساقاً على أخرى وردّ عليه دون أن ينظر إليه:

- وعليكم.

تحرك شريف يتجاوزهما في سرعة، والشاب يسأل أباه في دهشة:

- مش كنت بتقول ارقص للقرد!

- ما هو دلوقتي لا بقى قرد ولا بقت بلده.

- وطلباتك؟

صاح بها شحاتة، بينما يلقي بالميزيد من البخور، فجلس شريف من

جديد قائلاً:

- نفسي؟ نفسي الناس تعملي حساب من تاني.. نفسي في حد يطلب

مني خدمة.. مراتي ترجع زي الأول.. نفسي في الهيبة من تاني.

- طلبك عجيب!

- طب ما أنا عارف.

- بس علاجك عندي.
- لا يا راجل؟!
- بكرة تعرف وتصدق.. لما يهل الشهر الجديد هتلقى مرادك وحياتك من تاني.
- يمكن.. أما نشوف.
- نظر شحاتة نحوي بينما أحاول تجميع أي شيء مما أراه أمامي.
- لسه مفهمتش؟
- لسه بفكر.. بحاول أفهم.
- تحركت ناحيته كالمسحور، ليظهر كرسي من العدم بجانبه، فجلست طلباً لبعض الراحة لأجد سعيد يتحرك من جانبي وهو ينظر لما حوله في استهتار.
- مولانا.. مولانا.
- تعالى يا سعيد.
- إيه الأخبار يا عمنا؟
- تكلم شحاتة في عملية متجاهلاً سعيد:
- حكايتك ومشكلتك؟
- إلا صحيح بتحل أي مشكلة؟
- لو بإيدي.
- البت بتاعتي دلتنى عليك.. بيقولوا بتحل كل المشاكل.
- زي ما قتللك لو بإيدي.
- طب اسمع بقى يا مشيخة.
- استغربت الكلمة، فصحت في تعجب:
- مشيخة!
- نظر ناحيتي سعيد في استخفاف وأشار ناحيتي سائلاً شحاتة.
- أمان الكابتن ده؟

نظر ناحيتي شحاة وقال بهدوء:

- لا ده معايا.

انكمشت في مكاني وأنا أوْمَن على كلماته:

- أيوه أيوه أنا معاه.

- طب اسمع يا عمنا.

ظهرت من خلفه دائرتان من الضوء، أشار لإحدهما قائلاً:

- بقوم من نومي على 4 العصر كده بلاقي دول.

أكمل يصف الاثنين الواقفين أمام عيني:

- شحاة وكيمو.. مسجلين خطر.. يشرفوا مش كده؟

تكلم أحدهم بلسان ثقيل:

- سعدة.. عايزينك في مصلحة حلوة النهارده.. شوية شيكات

هنصّلها.

نظر الآخر إلى الفراغ قائلاً بصوت متحشرج:

- شغلانة لوز ومصلحة مقشرة.

أشار سعيد إلى الدائرة الأخرى التي امتلأت بالدخان قائلاً:

- ودول بقى شلة السهرة؟

كلمه أحد الواقفين قائلاً:

- معانا حتة النهارده بس إيه، فوق فوق بالأوي.. هات نفس ياض.

تجاهله سعيد مشيراً إلى الفتاة ذات الملابس الضيقة التي وقفت

تضحك مع أحدهم.

- ودي لميا.. لزوم الشلة برضو.. يتهيألي بتحبني.. أو بتحب عز، والله

ما أنا عارف.

- وطلباتك إيه؟

سأله شحاة في اقتضاب، فابتسم سعيد في توحش.

- تعجبني يا مشيخة.. بتجيب من الآخر.

- مشيخة تاني!

لم أستطع مقاومة نفسي من التعليق على لفظه، الأمر الذي استفزه،
ففتح مطواته في سرعة سائلاً شحاتة مرة أخرى:

- ده تبعك ده يا عمنا.. أصله رغاوي ومش عاجبني.

انكمشت في مكاني ولم أنطق، فتمتم بسبة بذينة وأغلق مطواه
ليتابع في شروء:

- أنا نفسي أنضف.. آه نفسي أنضف.. نفسي أسيب الشلة وملياً..
نفسي أبقى محترم، نفسي في حد يدلني على الصح.. نفسي في صاحب
بجد.. لا شحتة ولا كيمو ولا غيرهم.. نفسي بس ألاقي صاحب ده، بس
ألاقيه فين وكل النضاف بيخافوا مني يا بياجروني أعمل اللي بيخافوا
منه! تعرف تحلهالي؟ تعرف تلاقيالي حد نضيف بجد؟

- طلبك غريب.

- بس بيقولوا الحل عندك.

- وأنا هديك صاحب اللي بتدور عليه.

- بجد ولا نصاباية؟

- لما يهل الشهر الجديد هتلقاه بيدق بابك أكيد.

التفت شحاتة إلى ناحيتي سائلاً بصوت عميق:

- يا ترى لسه محتاج لتوضيح يا طالب الفهم؟

كانت قد بدأت القطع تتلاحم في عقلي، والرعب يتملك ملامحي
مما استنتجتته.

- لا.. أنا كده بدأت أفهم.

أوماً برأسه وابتسامة خبيثة ترتسم على وجهه.

- أيوه إنت كده فهمت.

- يعني إنت السبب ورا كل ده؟

قام من مكانه وانحنى بطريقة مسرحية قائلاً:

- في خدمة حضرتك.
- إنت اللي مخلي الناس بتكلم نفسها في الشوارع؟
- قصدك عايشة حلمها.
- وليه؟
- ما إنت شفت بعينيك.. همّ اللي طلبوا.. همّ اللي جولي برجليهم.
- وأخذوا إيه يعني؟
- تعالى صوته قائلاً:
- أنا اديتلهم الحياة.
- قمت من مكاني وأنا أصرخ.
- اديتلهم الوهم وعيشتهم فيه.
- رفع إصبعه وهو يهز رأسه، وقال مدافعاً عن نفسه:
- أنا اديتلهم الحلم.. اديتلهم كل اللي نفسهم فيه.
- بسحرك وأوهامك حولتهم لمجانين.
- أنا حولتهم لسعداء.. اديتلهم حياتهم وسط الحلم، اديتلهم السعادة.
- حلم مزيف وراه مليون كابوس.
- أنا اديتلهم الكمال.. وده طلبهم.
- جولك من جهلهم ويأسهم وقلّة حيلتهم.
- أنا اديتلهم اللي الحياة مقدرتش تديهولهم.
- لا بد أيّ جنت، بل أنا متأكد الآن أيّ في سراي المجانين، أصرخ في الهواء بينما الممرضين الضخام يحاولون تثبتي إلى السرير.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.. ظللت أدور في دوائر حول نفسي بينما شحاتة يقف أمام عينيّ بابتسامته الواثقه التي لم تتحملها أعصابي.. ركلت المبخرة في فورة غضبي فتوهج كل ما حولي بضوء أحمر شيطاني للحظات ليبتلعنى الظلام من جديد.

- فوق فوق يا أستاذ.. هي ناقصاك إنت كمان؟
سمعت القهوجي يصرخ بها وأنا أسترد وعيي.. شهقت كأني اشتقت
للهواء وقمت من فوري جالسًا، فوقف القهوجي في فرح:
- الحمد لله.. قوم اشرب شوية مية.
نظرت إلى ما حولي في سرعة فوجدت شحاتة ما زال في مكانه بيتسم
نفس ابتسامته المستفزة، ولما التقت عينانا غمز لي ورفع حاجبيه في
تساؤل.. تكاثرت علامات الاستفهام على وجهي ونما بداخلي شعور
باليقين مما رأيت.. قمت مسرعاً وأنا أحدث نفسي:
- لا مستحيل.. لازم أفوقهم.. لازم أنبههم.
- إيه يا أستاذ؟ فيه إيه؟
- لازم يصحوا.
- همّ مين دول؟ استرها معنا يا رب!
ضرب القهوجي كفًا بكف وهو يراني أتحرك ناحية فاتن التي ما
زالت تكلم الهواء.
- فاتن.. فاتن اصحي يا فاتن.. مفيش حد معاكي.. حبيبك لسه
مجاش.. دوري عليه في الحقيقة.
استدارت لتواجهني في تساؤل، فلما رأت الغبار يملأ ملابسها قالت:
- ربنا يحنن عليك.
- يحنن عليّ إيه؟ بصي حواليك.. شوفي إنتي بتكلمي مين.. محدش
معاكي إنتي بتكلمي الهوا.
نظرت إلى الفراغ بجانبها محدثة حبيبها الخيالي:
- لا لاد ده شكله مجنون يا حرام.. سيك منه متجيلناش المشاكل.
تركته أمام الأعين المتسائلة واتجهت إلى المقهى ناحية شريف:
- طب شريف.
رد في نبرة متعالية مصححًا:

- شريف بيه.
- شريف بيه.. شريف باشا.. حياتك ممكن ترجعلك لو حبيت الناس فيك.. عاملهم كويس.
- رفع الهاتف إلى أذنه في سرعة قائلاً:
- أيوه يا حاج.
- مفيش حد بيكلمك يا شريف.. افهم.. اصحى.. كله وهم.
- ابعد عني يا مجنون إنت.
- سمعت صوت من داخل المقهى يصيح:
- شيش يك.
- هرولت إليه ووقفت أمامه.
- طب اسمعني إنت.. إنت بتلاعب الهوا.. افهم.. اصحى.
- لم يرد على كلماتي فصرخت في الجميع:
- اسمعوني مينفعش كده.
- قام الرجل منتفضاً قائلاً بشدة:
- أيوه صحيح مينفعش كده.
- أمسكت به من كتفيه، فقد بدا أن أحدهم يستيقظ.. تلاعب الأمل بقلبي حتى قال:
- بيقصر على الزهر يا أستاذ.. ينفع كده؟
- رأيت الرجل ذا الجريدة يقول كعادته:
- بيقولوا الأسعار هترخص.
- طب اسمعني إنت.. إنت اللي هتسمعني.. فوقوا اصحوا.
- نظر إليّ في بلاهة للحظات ثم ضيّق عينيه قائلاً في همس:
- بيقولوا الأسعار هترخص.
- رأيت سعيد يتحرك أمام القهوة فتحرّكت ناحيته.
- طب سعيد.. اسمعني إنت.. إنت بتكلم الهوا.. مفيش حد جنبك.

- امشي بعيد يا راجل إنت.

نظر إلى الهواء بجانبه قائلاً:

- المجانين كتروا أوي يا مصطفى.

أمسكت به من ذراعه صارحاً:

- بقولك اسمعني.

انفتحت المطواة في يده في لمح البصر وتراقصت الوحشية على

قسماته صارحاً:

- لا ده إنت محتاج علامة.

أفلت منه في سرعة وجريت ناحية شحاة الذي يشاهد باستمتاع..

أمسكت به من تلايبه وأنا أصرخ في وجهه:

- إنت السبب في كل ده.. فهمهم.

- شيل إيدك من على مولانا يا مجنون إنت.

- يا نهارك أسود!

- ده إنت يومك مش معدي.

تعالّت الأصوات المهتدة من حولي، وبدأ الجميع في التوجّه نحوي

للفتك بي، حتى أوقفهم شحاة بإشارة من يده.. رد عليّ في هدوء وهو

يضحك في سخرية:

- أفهمهم! أفهمهم إيه؟ تقدر تقول علينا إحنا الي فاهمين بجد..

إنت الي محتاج تفهم.

- أفهم إيه؟ سحر ودجل وشعوذة وأوهام ساجن فيها ناس ملهمش

ذنب!

- أنا؟ طب أنا راضي ذمتك، عمرك شفت سعادة أكثر من الي

هنا؟ عندك فاتن وصلت للحب الي بتدور عليه.. شريف رجح لبيته

ولحياته وبكرة يكون أحسن.. سعيد قابل صاحب بيدور عليه من زمن

وبكرة أكيد هيتغير.. بص حواليك.. شايف الابتسامة الي على وشوش

الناس؟ اطلع برة وشوف الناس في الشوارع.. ناس مهمومة وكئيبة.. وهم؟ بتقول وهم؟ اسمه حلم.. أمل في بكرة.

- أمل مغشوش منسوج بمية عفاريت.. عقولهم مليانة كذب وأوهام مش أحلام.

سألني في هدوء بينما عيناه تخترقان روحي.

- إيه الفرق بين الحقيقة والوهم؟ تقدر تقول إيه الفرق؟ يقولوا اقرصني عشان أعرف إني مبلمش.. بس مين اللي قال إنك مبتألمش في الحلم؟ مين اللي قالك إني واقف قدامك دلوقتي؟ ما يمكن تكون واقف لوحك في الشارع وبتكلم نفسك زي المجانين.. فين الفاصل بين الوهم والحقيقة؟ السمع؟ النظر؟ الريح؟ إحساسك بالألم؟

أرخت قبضتي وأنا أحذره:

- أنا بحذرك.. اوعى تلعب بدماغي.

- إنت دماغك ملعوب فيها من زمان.. طب تحب أقولك حقيقة؟

الناس كلها عايشة في وهم.

- لا يا راجل؟!

- آه.. ناس عايشة في وهم لقمة العيش، وناس عايشة في وهم الفهلوة وتقليب المصالح، ناس عايشة في وهم السفر ورابطة بيه حياتها، ناس واهمة نفسها إنها صالحة ومحترمة وجواهم مليون شيطان.. ده غير وهم الخوف اللي دايمًا عايشين بيه.. خوفهم من بكرة.. خوفهم من بعض.. خوفهم من ال... من السلطة.. قول كلمة حكومة كده في أي أوتوبيس مليان ناس وشوف نظرة الخوف في عينيهم.. حس بالوهم بياكل حياتهم حته بحتة.

- أنا.. أنا..

- إنت مش عارف تقول إيه.. حتى إنت مالي حياتك أوهام.. واهم

نفسك إنك بتحب اللي حواليك، وفي أول فرصة ممكن تدوس عليهم

عشان تحقق أحلامك.. اسمك كمال وعيش في وهم الكمال.. معايا
تقدر تحقق أحلامك.. حبيبتك اللي سابتك يمكن ترجع.. يمكن تكون
أشهر صحفي في مصر.. غني.. مشهور.
تركته وأنا أحاول السيطرة على أفكاري.

- وأسيب حياتي والناس وأعيش في وهم؟!!

- إنت بتقايض وهم بحلم.. معايا مفيش خوف من بكرة، مفيش
فقر.. معايا هتكون حر.. وكل ده ببساطة بدون مقابل.. فري.. عايز
تخرج اتفضل اخرج محدش هيلمسك، اخرج وعيش الذل واليأس،
عيش في وهم معمولك.. بس اوعى تفتكر إني لوحدي، أنا كتير.. كتير
أوي في كل حنة وفي كل مكان.

- بس...

- من غير بس.. فرصة مبتجيش في العمر غير مرة واحدة.. يا تعيش
في الحلم.. يا تموت في الحقيقة.

أربكني منطقه.. ألم آتِ إلى هنا محاولاً إبهار رئيس التحرير؟ ألم
يكن كل ذلك في محاولة مني لتغيير حياتي؟ هل حياتي تعني لي الكثير
فعلاً لأمسك بها؟ ألم أحاول دومًا التخلص منها واستبدالها؟ يمد يده
إليّ مصافحًا فأنظر إليه في ذهول.. ساد الصمت للحظات بينما يده
الممدودة تقف في الهواء تنتظر ردي.

- اصحي يا حارة وفوقي.. اصحوا.

أخرجني الصوت من حالتي، كأن الكون يحاول إعادتي عما أفكر
فيه.

- اصحوا يا نايمين.

نظرت إلى المجذوب الذي ظهر من بعيد، ورفعت رأسي إلى شحاة
متخذًا قرارِي.

- لا يا شحاة.. أنا مش هعيش في الوهم.

تركته بينما الذهول والغضب يتراقصان على ملامحه، واتجهت إلى
المجذوب لأمشى وراءه وأردد معه:

- اصحي يا حارة وفوقي.

- اصحي يا حارة وفوقي.

- ده بكرة يبجي اليوم شمس النهار هتبان.

- ده بكرة يبجي اليوم شمس النهار هتبان.

سمعت شحاتة يصرخ في غضب من ورائي:

- هي دي الحقيقه بتاعتك؟! هتمشي في الشوارع تكلم ناس عمرها

ما هتسمعك! هتحول نفسك لمجنون؟ اتكلم.. عاي صوتك كمان

وكمان.. سمع الدنيا كلها.. ولا حد هيسمعك.. ولا حد هيتحرك خطوة..

عارف ليه؟ عشان إنت ولا حاجة.. غلّة.. مجرد غلّة.

تجاهلته وأنا أرفع صوتي وراء المجذوب:

- اصحوا.. فوقوا.

- اصحوا يا نايمين.

- ولا ناموا.

نظرت إلى شحاتة بعينين دامعتين:

- لأ.. اوعوا تناموا.

obeikandi.com

هلاوس

ملحوظة: هذه القصة لا تعبر عن أي شيء، ولا أحاول فيها أن أعبث بأي نوع من المعتقدات الدينية أو الأشكال السياسية، وإنما هو نوع من أنواع العبث الصريح الذي لا أقصد به أي شيء على الإطلاق.. قد يكون نوعًا من أنواع إطلاق العنان للخيال، أو الخبال أن أردت قول ذلك.. قد يكون نوعًا ما من أنواع الهلوسة.

ملحوظه أخرى: لا بد أنك تتحرق شوقًا للقراءة الآن، مما يثبت نظرية أن الدعاية الجيدة قد تجعل من أي شيء مهمًا، حتى لو كانت القصة تتكلم عن دورة حياة دودة الأميبا.

obeikandi.com

يقال إن أي إنسان على ظهر البسيطة لا يربطه أكثر من ستة أشخاص
بأي إنسان آخر، ولكن المهم أن تعرف من هم الأشخاص الستة.

* * *

ستة

”لا بد أن أكتب قصة“، هكذا حدثت نفسي محاولاً أن أجد فكرة
مختلفة.. أحاول أن أجوب بحور الخيال.. نعم يجب أن أكتب قصة
جديدة.. أفكر.. أعتصر مخي.. إنها ليلة رأس السنة والجو البارد يرمي
بالقشعريرة على عمودي الفقري.. جوي المحبب للكتابة.. حسناً سأحاول
الآن ولنرى كيف ستمضي القصة.

اندفع مصطفى كالمجنون في الشارع محاولاً اللحاق بموعده متمنياً
أن يتذكر أين ركن سيارته تلك المرة.. كم كان شكله مرهقاً بعينيه
المحمرتين جراء السهر وتلك الجالونات من القهوة في جوفه لكي يحضّر
لذلك الاجتماع.. ينظر إلى يمينه وإلى يساره، حين رآها تخرج من ذلك
المحل.. جميلة متألقة كالشمس في عينيه.

مهلاً مهلاً.. لماذا دائماً يجب أن تكون جميلة؟ قلتها لنفسي.. لماذا
دائماً ما تكون بطلة القصة بارعة الجمال؟ حسناً.

حينها رأى تلك الفتاة تخرج من ذلك المحل في ركن الشارع.. فتاة
عادية كالكثيرات، ولكن لمجرد أن وقعت عليها عيناه وجد أن قلبه...
لا.. لا.. لا.. قلتها لنفسي مرة أخرى.. لماذا دائماً ما يرى البطل
البطلة وليس العكس؟ لماذا تبدأ قصص الحب من طرف الرجل وليس
العكس؟ أنا أبحث عن الاختلاف.

اندفعت زهرة في الشوارع كالمجنونة محاولة اللحاق بموعدها مع
زملائها في العمل، للقيام برحلة التسوق الشهرية كعادة النساء، داعية
أن تتذكر أين ركنت سيارتها، لأنها كالعادة تنسى دائماً.. كم كان منظرها

مرهقًا وهي تعبر ذلك الشارع من جراء السهر وجالونات النسكافيه (لا بد أن يكون نسكافيًا) وهي تتحدث مع صديقتها في التلفون! تنظر يمينًا وتنظر يسارًا لتراه، ذلك الشاب الرياضي ممشوق القوام يخرج من ذلك المحل يحمل كيسًا ضخماً يئن من حمله.. ينظر إلى من حوله في غضب.. توقفت مشدوهة للحظات تتساءل في سرها لم لا تكلمه! إنها واثقة أنها رأته من قبل.. تراه ينظر إلى اليمين وإلى اليسار متأهبًا لعبور الشارع.. الكيس يتمايل بين يديه منذرًا بكارثة، ولكنه لا ينتبه.. تصرخ بأعلى صوتها أن احتس.. ينظر إلى مصدر الصوت للحظة.. لحظة وحيدة ظهرت فيها تلك السيارة المسرعة بصرير عجالاتها يسد الأذان.. تتأكل الأمتار في سرعة بينه وبين السيارة التي لا يفلح قائدها في إيقافها أو تفاديه.. تصرخ زهرة بأعلى صوت حينما رماه الارتطام لمترين في الهواء، ليقع على رأسه بصوت مسموع.. أحست أن الدنيا قد سكنت من كل الأصوات إلا صوت أئينه.. تجري وسط أناس لا تراهم بأعين دامعة.. سائق السيارة يتوقف متوقعًا الكارثة القادمة.. تجري زهرة حتى تصل إليه ليسطع فجأة ذلك الضوء المبهر في المكان ويختفي مصطفى من وسط الشارع إلى الأبد، لتقف زهرة متسائلة وسط الناس أين ذهب!

* * *

خمسة

اندفع ذلك الفارس الضخم المدجج بالدرع رافعًا سيفه العملاق في الهواء ينهب الأرض نهبًا متجهًا إلى... إلى أين يتجه ذلك الفارس؟ تساءلت.. لا بد أن يتجه إلى شيء.. هل أجعله يحارب جيشًا من الأشداء؟ لا، تقليدي جدًا.. إذن فهو جيش من مخلوقات فضائية.. لا مفرط جدًا في الخيال.. ثم ما الذي جاء بفارس إلى قصتي من الأساس؟! نعم وجدتها.

اندفع ذلك الفارس الضخم المدجج بالدروع يرتدي السواد رافعاً سيفه العملاق المصنوع من الفضة الخالصة وسط ذلك القطيع من الذئاب الضخمة.. أضخم ذئاب قد تراها في حياتك.. يلوح بسيفه ذات اليمين فيصرع اثنين منهم.. يميل فيتفادى انقضاضة من أضخمهم.. ليغرس سيفه في رقبتة بعدها بثوانٍ.. يقتل اثنين.. خمسة.. ولكنهم يتزايدون وينقضون عليه من كل الجهات.. يتمسك بدرعه الثقيل ويضرب به أحد الذئاب في وجهه ليخر صريعاً في الحال.. أحد الذئاب يقتنص قدمه وآخر ينقض على ظهره فاتحاً فمه عن آخره.. صيحة ظفر تخرج من كبير الذئاب على هيئة زمجرة أمرة.. يحاول الفارس التملص من مهاجميه، ولكن ينقض على ظهره ذئب آخر ليشارك زميله.. يتشمم الذئب رقبة الفارس متأهباً لأن يقضم من لحمها.. زمجرة أخرى من ملك القطيع يأمرهم أن ينهوا المهمة.. الذئب ينبش أسنانه في رقبة الفارس لكنه لا يجدها، لأن الفارس اختفى من وسطهم وكأنه لم يكن موجوداً من الأساس.. يبحث الذئاب من حولهم في ذهول حيواني، ليطلق زعيمهم زمجرة عظيمة وكأنها صرخة غاضبة.

* * *

أربعة

أين توقفت؟ نعم لقد اختفى الفارس.. ثم ماذا؟ قصة غريبة جداً تلك القصة.. لحظة لأقضم من تلك الشظيرة حتى أكمل.
”عبد الحفيييييييييظ!“ صرخت تلك المرأة البدينة بالاسم في غضب شديد، لتندفع من بعدها إلى صالة منزلها ممسكة بتلك الملعقة الخشبية الضخمة، لتلوح بها في وجه ذلك الرجل الممتقع شديد النحافة الذي يجلس أمام التلفاز يقرأ الجريدة في تمعن، وكأنما لا يسمع ما يدور بالداخل.
- يجب أن ترى حلاً في ابنتك هذه.

تساءل في داخله.. ابنته؟ إنه لا يتذكر أن له ابنة.. الحقيقه إنه لا يتذكر أي شيء قبل تلك اللحظة.. من هو؟ لا بد أن اسمه عبد الحفيظ كما يقولون.. ثم من تلك المرأة البدينة؟

- لماذا لا ترد عليّ؟ هل انخرست أخيراً؟

نعم.. من هو عبد الحفيظ؟ سألت نفسي مجدداً.. ليكن موظف حكومة بالأرشيف.. يقضي الوقت في قراءة الجريدة دائماً، ولتفقد زوجته بعض الكيلوجرامات أيضاً.

نعم، إنه الآن يتذكر.. إنه موظف بالأرشيف يحب قراءة الجريدة.

- ألم تكوني بدينة عن ذلك؟

سأل امرأته في اندهاش.

- ستصيني بالجنون أيها الرجل.. نحن نتكلم في ابنتك المجنونة.

- ولكنك كنت بدينة، وكأنك.. وكأنك فقدت عشرة كيلوات في لحظة.

- لقد جننت حتماً مثل ابنتك.. عائلة المخابيل هي أنتم.

قالتها لتدخل إلى المطبخ مرة أخرى وهي تسب وتلعن، ولكن عبد الحفيظ يشعر أن هناك شيئاً مفقوداً.. يشعر أنه لا يفهم شيئاً.

”هل لا تفهم شيئاً؟“ قالها ذلك الرجل ذو الصوت الغليظ في التلفاز، ليعقب من بعدها ”إن كنت لا تفهم شيئاً من حياتك اتصل بنا على 0900999 ونحن سنزوّدك بالحل.. اتصل الآننننن“.

يبدو أن عندهم الحل، وعبد الحفيظ لم يحاول أن يفكر في شيء من قبل هكذا؛ نظر إلى الهاتف الأسود الصامت في ركن الحجرة ليتحرك من مكانه المفضل في غرفة المعيشة.. من أين جاءت تلك المياه على الأرضية.. لا بد أن زوجته كانت تنظف منذ قليل.. سأل نفسه ما اسمها، لينفض عن نفسه السؤال، مقتنعاً أن أصحاب الإعلان سيدلونه كما قالوا.. لكن لو كان أكثر حذراً ليلبس حُفّاً أو يرى ذلك السلك الملقى بإهمال إلى جانب التلفون.. لو كانت خطوته أكبر من

ذلك.. لو كان فقط أكثر حرصًا وأدق نظرًا، ولكنه للأسف لم يكن.. داس على السلك لتسري في جسده الكهرباء في لحظات.. انتفض جسد عبد الحفيظ انتفاضات متتالية ليطلق صرخة أخيرة، وعندما خرجت امرأته وابنته إلى غرفة المعيشة لم تجدا له أثرًا، وكأهما اختفى أو تبخر من مكانه.. وانطلق ذلك الصوت في التلفاز مرة أخرى.

”هل لا تفهم شيئًا؟! اتصل الآن.“

* * *

ثلاثة

هل غفوت؟ ربما غفوت للحظات.. ربما كانت دقائق أو ساعات.. لا يهم، ربما لأن الأوقات تشبه بعضها.. أيام أم ساعات لا فارق.. نعم قد كنت أكتب قصة.. أين توقفنا؟

اندفع ذلك الذئب الوحيد يجري لاهثًا يقطع الأمتار في سرعة، ومن ورائه اندفع ذلك القطيع من الذئاب الذي يتحرك ككتلة واحدة وفي عقولهم جميعًا هدف واحد.. صوت تلك الخطوات.. لهاث.. وفكرة واحدة اعتملت في أعماق الكل.. لا بد ألا نتركه يهرب.

لا انتظر.. قلتها لنفسي.. لا بد من عنصر نسائي.. ثم ما فكره من الذئاب؟ نعم لنجعلهم مذؤوبين.. لتكن مذؤوبة.. حسنًا لنكمل.

تندفع تلك المذؤوبة المتوحدة يتبعها القطيع فوق الثلوج الروسية القاسية.. خطوة تلوها الأخرى.. ولكن من أين جاء ذلك الفرع.. تتعثر فيه لتطير مترين في الهواء، لتصطمم بالأرض ويلحقها باقي القطيع في لحظات.. صوت الزمجرة يصم الأذان ويملأ الهواء لتقاطعهم زمجرة أعلى وتخرج من وسطهم تلك الذئبة التي تتمايل في دلال وتنظر في حقد ذات اليمين واليسار.. خطوة تلوها خطوة لتتحول آثارها فجأة إلى آثار آدمية وتقف منتصبه على هيئة أنثى جميلة و... (تخيل أي فتاة كليبات وستفي بالعرض). تقف أمام الذئبة الهاربة قائلة:

- لقد خنتِ العشيرة يا هيلجا.
تقف من أمامها هيلجا في هيئتها البشرية قائلة:
- بل أنت الخائنة أيتها...
اندفعت الذئبة شبيهة فتيات الكليات كأي ذئبة تحترم نفسها:
- نعم نعم يا حبيبتي! أنا الأحق منك بالملك أيتها العجوز المتهالكة..
منذ متى لم تنظري إلى فرائك في المرأة؟
- لقد انتزعتِ الملك أنت وهؤلاء الخونة، وأقسم أنني سأنتقم
منكم أجمعين.
- حتى في آخر لحظاتك تظنين أنك ستنتصرين يا هيلجا! حمقاء
كالعادة.
ثم كنبليون بونابرت قالت:
- اقتلوها!!!!!!

للحظات توقف الجميع صامتين لترتفع زمجراتهم تدريجياً.. انطلقت
أميرة الذئاب الجديدة متحولة إلى صورتها الذئبية رافعة عقيرتها لتنقض
انقضاضتها الأخيرة.. ولكن قبل أن تصل أسنانها إلى عنق هيلجا كانت
هيلجا اختفت وكأنها لم تكن موجودة من الأساس.
اندفعت أميرة الذئاب قائلة بأعلى صوت:
أين هي؟ أين هي؟ هل يفهم أحدكم شيئاً؟

* * *

اثنان

كم هي غريبة الحياة، هكذا حدّث نفسه متأملاً علبة الأقراص بين
يديه.. هل يعقل أن يكون حل كل المشاكل في تلك الحفنة من الأقراص
الصغيرة؟ هكذا تساءل في تهكم.. لا بد أن يقتل نفسه من أجل...
نعم.. من أجل ماذا؟ ولكن قصة حب فاشلة كالعادة.. فتاة اسمها
أمنية أو بسمّة.

لا بد أن يقتل نفسه من أجلها.. تركته يتعذب ورحلت.. أمانة أو بسمة رحلت بعدما غرست في قلبه ذاك الخنجر المسموم بكلماتها القاتلة البطيئة.. لا بد أن يرحل، فهو لن يتحمل الحياة من دونها.. يتأمل زجاجة الأقراص في هدوء وعلى شفثيه ابتسامة أسي وسخرية.. يفتح الزجاجة.. يلقي بحفنة من الأقراص بين يديه.. لا بد أن يرحل.. كانت عيناها.. الغريب أنه لا يتذكر عيناها، لا يتذكر أي شيء من ملامحها على الإطلاق.. تساءل في سرّه عما يعنيه هذا، ولكنه نفضه عن رأسه في سرعة.. المهم أنه حزين وكفى.. المهم أن يرحل ويترك لها الحياة مع إحساسها بالذنب.. نعم سيكون هذا هو انتقامه الأبدي.. لا بد أن صورتها في جيوبه.. يبحث ويبحث ليجد تلك الورقة المطوية بعناية.. نعم جميلة.. ينظر إلى صورتها مع نفس عميق ليرفع بالحبوب إلى فمه محاولاً أن تشمل عيناها تفاصيل صورتها.. محاولاً أن تكون صورتها هي آخر ما يراه إلى الأبد.. مليمترات تفصل بين يده وفمه.. مليمترات تفصله عن الحياة، لكن قبل أن تصل يده بمحتواها إلى داخل فمه اختفى من مكانه وكأنها لم يكن موجوداً من قبل لترتطم بالأرض تلك الأقراص وتقع بجانبها صورتها، وصدى جملة ترددت في خلايا مخه ما زال يملأ المكان.. أحبك يا محمود.

* * *

واحد

تحرك ذلك الرجل ذو المعطف الطويل في ذلك الرواق المظلم بتؤدة، وبتلك المشية الواثقة التي تقول إن صاحبها واثق من نفسه ولا يجب أن تتهور معه.. يمشي مدنناً بذلك اللحن القديم، وصوت خطواته يصنع إيقاعاً رتيباً متأملاً ذلك الظل الضخم لذلك الرجل الذي يقف في آخر الرواق، معطيًا ظهره للنور راسماً ذلك الظل.. بصوت رخيم تكلم: - لقد حضرت في موعدك كالعادة يا عدنان.

- أنت تعرفني، أنا لا أحب أن أخلف مواعيدي أو قواعدي.

- رجعنا إلى ذلك الهراء عن القواعد مجددًا.

- لتتكلم في العمل ولنطرح الترهات جانبًا.

- نعم نعم.. العمل كالعادة.

امتدت يده بمظروف ضخم ليستلمه منه عدنان في هدوء ووزانة وثبات.. ليفضّه من بعدها مخرجًا تلك الورقة، ينظر فيها بعناية وبتمعن، ثم دهشة، ثم غضب، ليصرخ:
- أتمرح؟! إنها صورتي وبياناتي!

وعندما نظر إلى يد الرجل الواقف أمامه رأى ذلك المسدس كبير الحجم وتلك الفوهة موجهة إلى ناحيته:

- اعذربي لا شيء شخصي، إنه العمل كالعادة.. أنت تعلم كيف هم الكبار، إذا أرادوك ميتًا فأنت ميت.

مع آخر كلماته ضغطت يده على الزناد لتنتلق رصاصته التي أحكم تصويبها جيدًا، لترتطم بالحائط المقابل وتخطئ هدفها، لأن هدفها اختفى في لحظة ولم يعد هناك.. انتقل معهم إلى هناك.

* * *

اللقاء

هل غفوت مرة أخرى؟ لا بد أنني متعب جدًّا.. لا بد أن ساعات قد مرت وأنا في ذلك الوضع.. ماذا أكتب؟ نعم إنها تلك القصة أو محاولة القصة كما أظن.. أين توقفنا؟ نعم لقد اختفى هؤلاء الأشخاص وهكذا تكونت الشخصيات.. لندعهم يلتقون.

هل مت؟ انطلق ذلك السؤال وتردد صداه في عقول ستة أشخاص ترامت أجسادهم في أنحاء الغرفة.. لا بد أنني قد مت.. قالها الفارس لنفسه مكملًا:

- تبا لهؤلاء الذئاب! كيف لهم أن يقتلوني؟ هؤلاء الحمقى لا يعلمون

من قتلوا، ولكن لم يبدو الموت بذلك الدفء؟ لا بد أنها الجنة التي وصفها لي الكاهن.

انقلب الفارس على ظهره فاتحاً عينيه، ليرى تلك الغرفة الفارغة التي ترامت فيها أجساد الخمسة الآخرون.

- لم يشاركني هؤلاء موتي؟ ثم من هؤلاء أساساً؟

يقوم من مكانه في خفة تعارضت مع وزنه ووزن دروعه، ليقترب من أقربهم له الذي لم يكن سوى عبد الحفيظ، ويهزه في عصبية:

- استيقظ أيها الرجل النحيل.. استيقظ.

تمطى عبد الحفيظ في استرخاء قائلاً:

- اتركيني قليلاً، فالיום هو الجمعة.

- استيقظ أيها الغريب.

فتح عبد الحفيظ عينيه في عصبية ليرى وجه الفارس، فشهق صائحاً:

- خذ كل ما تريد ولا تقتلني.. خذ أي شيء.

- اهدأ، أنا لا أريد قتلك.. من أنت؟

طفق عبد الحفيظ في الصياح كسرينة عربات الشرطة بصوت يوقظ الموتى، ليفيق الجميع متلفتين حولهم في عصبية واندهاش، وطفق مصطفى ومحمود يحاولان تهدئة عبد الحفيظ، مع الكثير من "صلى على النبي يا حاج"، وبعد أن هدأ عبد الحفيظ بعدما أعطاه أحدهم سيجارة "التدخين ضار جداً بالصحة" وبدأ ينفث الدخان في استمتاع ليسأله الفارس، وهو يوشك على أن يقتل أحدهم:

- من أنت؟ ومن أنتم جميعاً؟ لم تشاركوني الجنة؟

"لست في الجنة، لأننا لم نمت أيها العملاق" التفت الجميع إلى مصدر الصوت، ليجدوا هيلجا تقوم من على الأرض متمائلة ك... كالدئاب طبعاً، لينفتح فم عبد الحفيظ في بلاهة وتصدر صافرة إعجاب من الفارس ويقترب منها:

- ومن أنتِ أيتها الجميلة؟ إن لم أكن في الجنة فمن أين جئتِ أيتها الحورية؟

- أنا هيلجا، ووقّر على نفسك هراء الحوريات هذا.. أنا أفطر بخمسة من عينتك.

ابتسم الفارس في استهزاء، وبطريقة جيمس بوند قال:

- لا بد أنك لا تعرفيني جيداً.. ولكن أنا أضمن لك أيتها الحسنة.

”هل تريدون أن نخلي الغرفة ونعزف لكم بعض الموسيقى الهادئة؟“
قالها عدنان في نفاذ صبر لأنه لم يتحمل ما يحدث، واستطرد: ”لا بد أن نفهم أين نحن أولاً“.

ردت هيلجا في غيظ:

- لم نمت، وهذا ما أنا متأكدة منه.

سبل الفارس عينيه وقال في هيام:

- ولم يا أميري أنتِ متأكدة أننا لسنا في الجنة؟

ردت عليه:

- صدقتي أنا أعلم الموت جيداً وأعلم أكثر أنني لن أرى الجنة.

بدأ عدنان بالتحرك وهو يعدد على أصابعه:

- إذن فنحن أحياء.. في مكان لا نعرفه.. ولا يعرف أحدنا الآخر.

ردد عبد الحفيظ في هلع:

- إذن فقد اختطفونا.. لا.. لا أريد أن أموت مخطوفاً.

- اهدأ فلن يموت أحد.

كانت هذه من محمود الذي بدا كأنه يفيق من شroud إلى شroud..

للتكلم هيلجا قائلة:

- لكن إذا كنا مخطوفين فلا بد أن يكون بيننا صلة معينة، وإلا ما

الفائدة! حسناً ما أسماؤكم؟

بدووا جميعاً يذكرون أسماءهم، حتى جاء دور الفارس ليفكر لفترة

ثم يقول:

- العجيب أنني لا أعرف.. شيء عجيب لا أفهمه ولكنني لا أعرف
فعلًا.. شيء غريب، لا بد أنني بدأت أشيخ فعلًا.

ردت هيلجا:

- غريب فعلًا ولكن لا يهم الآن.. يبدو أننا لسنا من نفس البلد،
وقد نكون من أزمنة مختلفة أيضًا كما أرى من الملابس وتنوعها.

رد عدنان مسرعًا:

- لكننا جميعًا نتكلم العربية الفصحى.

فكرت هيلجا للحظة:

- غريب هذا.. الآن أدرك هذا فقط، فأنا لا أتذكر أنني من منطقة
عربية، ويبدو أن الفارس يشاركني في ذلك.. لكن نقطة جيدة، وأيضا
كما أرى فإن ثلاثة منا مديون بلا قوة تقريبًا، وثلاثة يعيشون الخطر.

رد عدنان في اندهاش:

- ومن أين عرفت أيتها البقرية؟

- لا تستهن بي يا عزيزي، فأنا أعرف الخطر عندما أراه.. لكن لحظة،

هل مر أحدكم بتجربة معينة قبل أن يأتي إلى هنا؟

رد الفارس:

- كنت سأموت.

ورد عبد الحفيظ:

- وأنا كنت سأصعق بالكهرباء.

ليسأله الفارس:

- وما هي الكهرباء؟

تحير عبد الحفيظ للحظة ثم قال:

- الكهرباء هي الكهرباء.. لحظة، لم الغرفة مضيئه دون أي مصدر

إضاءة؟

تكلمت هيلجا مرة أخرى:

- وأنا مثلكم كنت سأقتل غدراً.

استلّ الفارس سيفه قائلاً في صوت جهوري:

- من ذا الذي يقدر أن يؤذيك وأنا معك؟

صاح عدنان في نفاذ صبر:

- اهدأ يا سيدي قليلاً ودعنا نفكر.. إذن فكلنا اقتربنا من الموت

لنجد أنفسنا هنا فجأة، ولكن هذا لا يصلح كرابط.. من قال إننا

مختطفون من الأساس؟

أرهفت هيلجا سمعها قائلة:

- أسمع صوت خطوات بالخارج.

حبس الجميع أنفاسهم وهم يستمعون لصوت الخطوات بالخارج

تقترب، وتقترب أكثر وأكثر، وتوتر الفارس يزيد ويزيد، ليصيح فجأة

بهستيريا:

- لا أطيق هذا الصوت.. إن كنت رجلاً أظهر نفسك الآن.

ليخرج سيفه مغمداً إياه في جسد هيلجا بقوة.. بقسوة، ونظرات

الذهول ملأت المكان.. كان... أن...

ما هذا الهراء؟ لم يقتل الفارس هيلجا أساساً؟ لا بد أنني جنت

حتمًا.. كيف لفارس أن يفقد أعصابه بتلك السهولة؟ ثم أنا بدأت أحب

هيلجا فعلاً فلم أقتلها؟ دائماً المرأة أذكي.. لا.. لا.. لأمسح ذلك الجزء

الأخير.

صاح عدنان في نفاذ صبر:

- اهدأ يا سيدي قليلاً ودعنا نفكر.. إذن فكلنا اقتربنا من الموت

لنجد أنفسنا هنا فجأة، ولكن هذا لا يصلح كرابط.. من قال إننا

مختطفون من الأساس؟

أرهفت هيلجا سمعها قائلة:

- أسمع صوت خطوات بالخارج.

صاح عبد الحفيظ:

- أحس أنني رأيت ذلك المشهد من قبل.

مال عليه محمود قائلاً:

- ديجا فو تقصد؟

وبدأت الخطوات تقترب وتقترب، ومعها زاد توتر الفارس، الذي بدأ

عبد الحفيظ في مراقبته وهو يكلم نفسه.

- أكاد أقسم أنني رأيت ذلك من قبل.. لا.. لا بد من التحرك.

وعندها صاح الفارس:

- لا أنا لا أطيع ذاك الصوت.. إن كنت رجلاً أظهر نفسك.

امتدت يده على سيفه ليجد تلك اليد القوية تمسك بيده، والتي

لم تكن سوى يد عدنان، نظر إليه نظرة معناها الكثير، من تلك

النظرات التي يجيد الخطيرون صنعها.. شخصت أنظار الجميع ناحية

الباب لثوانٍ بدت كدهور، لينفتح الباب عن وجه عجوز أشيب منحنى

الظهر، ليتنفس الجميع الصعداء ويبدأ عبد الحفيظ في الكلام.

- سلام عليكم يا حاج.. هل تعلم هل نحن مخطوفون أم لا؟

رد الرجل العجوز في هدوء:

- لا لستم مخطوفين. لم تقول هذا يا ولدي؟

رد الفارس:

- نحن أغراب أيها العجوز.. هل تدلنا على أقرب مدينة؟ وسنكافئك

بسخاء.

ضحك العجوز من كلامه، ورد:

- لا تهمني المكافأة.. المدينة على الجانب الآخر من الغابة، لكن إن

دخلتم الغابة فاعلموا أنها ليست بالتجربة المحببة.

تكلم مصطفى:

- ولم؟ ما الذي يوجد هناك في الغابة؟
ملاً الغموض وجه العجوز، والتمعت في عينيه نظرة من تلك
النظرات التي يجيد صنعها العجائز، وقال:
- الكثير.

أشهر الفارس سيفه وتقدم الجميع، قائلاً:

- لنذهب يا أميري، فأنا سأحميكم.

تمتم عدنان:

- احم نفسك أولاً أيها المغفل.

في حين فكّر محمود:

- أو نموت لا يهم.. فقد تركتني ولا تصلح الدنيا من دونها.

في حين فكر مصطفى أن يفكر في شيء، ولكنه لم يجد ما يقول،
فانضم للجمع.

أخرج عبد الحفيظ علبة سجائره "التدخين ضار جداً بالصحة"
واقترب من العجوز قائلاً:

- أشكرك يا حاج.. سيجارة يا حاج؟

* * *

القرية

كم كان منظرهم يوحى بالبطولة! ثلاثة في المقدمة يمشون فاردين
صدورهم مواجهين المخاطر، وثلاثة آخرون يمشون منكمشين ملتصقين
بعضهم في الخلف، يتوسطهم الرجل العجوز.

كم واجهتهم من مخاطر! وكم من الأهوال رأوها! لكن ما هي
الأهوال؟ لا يهم.. وحش، سفاح مجنون، قبيلة من آكلي لحوم البشر،
عفاريت زرق.. سأعود لأكتب الأهوال بعد ذلك.. المهم أنهم خائفون..
خائفون بشدة.

أشعل عبد الحفيظ سيجارته الخامسة والعشرين قائلاً في همس:

منادياً الجميع:

- لقد مات العجوز.. لنذهب من ذلك الاتجاه (هكذا أفضل).

* * *

كانت القرية كالحلم.. أناس ترقص وأناس تضحك، والحسناوات يملأن المكان، ليدخلها أبطالنا مملوئين بالرهبة من جراء ما رأوا، ليحل محلها رويداً رويداً الفرحة بإنقاذهم مما كانوا فيه.. اندمج الجميع في الأنغام التي ملأت المكان، وسأل عبد الحفيظ من حوله في براءة:
- مولد سيدي من هذا؟

وجد الجميع ترحاباً كبيراً من أهل البلدة الذين بدوا في غاية السعادة، وكأنهم لم يروا أغراباً من قبل، بل إن أحدهم عرض أن يزوج بناته الثلاثة لهم، وبينما جلس الجميع تحيط بهم الحسناوات يشربون ذلك المشروب الغريب المذاق في الكؤوس المذهبة، قام الفارس وتقدم من هيلجا قائلاً:

- أسمحين لي بتلك الرقصة يا آنسة هيلجا؟

ابتسمت هيلجا لتكشف عن نابيها قائلة:

- لم تريدني بذلك الشكل؟ أنا لست من النوع اللطيف.

- ومن قال إنني أحب المرأة اللطيفة؟

- إذن ماذا تريد؟

- أتتزوجيني؟

امتلاً وجه هيلجا بحمرة الخجل، وأعطته يدها قائلة:

- هيا لنذهب من هنا.

وأشارت إلى الباقيين قائلة:

- سنذهب من هنا يا رفاق، فلدينا وحوش لنصطادها.

ثم اتسعت ابتسامتها وغمزت بعينيها.

- سنتزوج أنا وفارسي.. أنتم معزومون على الفرحة طبعاً.

غابا عن الأنظار، ليقول عبد الحفيظ بقم مليء بالطعام:

- قصة حب حقيقية.. نهاية سعيدة فعلاً.

قام عدنان من بعدها قائلاً:

- يبدو أنني أيضاً مضطرب إلى الذهاب، فحياة الدعة لا تناسبني، غير

أن لدي انتقاماً أسعى وراءه، كما أن الطعام هنا لا يعجبني.. كوليسترول كثير .

وضع يديه في جيوب معطفه الطويل ورسم نظرة الخطر التي يجيد

صنعها على وجهه، قائلاً:

- سنلتقي مجدداً أيها الرفاق إن شاء الله.

اختفى عن الأنظار في لحظات، ليقول عبد الحفيظ بقم مليء

بالشراب:

- نهاية سعيدة أخرى يا رفاق، هذا يجد سعادته في انتقامه.. أنا

أيضاً وجدت سعادتي.

ثم إشار للحسنة بجانبه.

- ما اسمك أيتها الحسناء؟ إن أم العيال مقارنة بك لا تعتبر أنثى

أصلاً.

وبدا كأن هذه القصة انتهت نهاية سعيدة لكل الأطراف، فها هو

محمود قد قرر أن ينسى ويتزوج، ومصطفى قرر ألا يشغل باله، وبدأ

يُعدّ نفسه ليصبح من كبار المستثمرين.

- لكن مهلاً.

قالها عبد الحفيظ.

- ماذا لو لم تفعل شيئاً؟ ماذا لو أن كل ما فعلناه أن نصبح هنا في

النهاية؟ ماذا لو كان الخطر هنا وليس هناك؟

هكذا إذن! هكذا فكرت.. طيب يا عبد الحفيظ! استنى عليّ.. ثم

رجعت إلى الفصحى مرة أخرى لأكمل.. بعد كل ما فعلته من أجلك!

حسنًا.

عندما دارت رؤوس الجميع من الطعام والشراب ظهر ذلك الرجل
يلبس تلك الأسمال قائلاً:

- أيها الناس.. لقد تحققت النبوءة ودخل بلدتنا الأعراب كما تنبأ
لنا العراف، وحن وقت الأضحية.

ردد عبد الحفيظ في سكر بلسان ملتو:

- نعم نعم.. الأضحية، وأنا جدع.

أكمل الرجل ذو الأسمال:

- احملوا الأعراب إلى مائدة الأضحية.

ردد عبد الحفيظ:

- نعم احملوا الأعراب... لا.. لا تحملوا الأعراب.

نظر من حوله فوجد محمود لا يعي ما حوله، ووجد مصطفى نائمًا
كالطفل، وبينما يحمله الرجال الأشداء كالطفل الصغير فكّر في حسرة..

أين الفارس عندما تريده؟ أين هيلجا القوية؟ أين القاتل المحترف
عندما تحتاجه بالفعل؟ بينما تداعت صور عديدة من حياته في مخيلته

وهم يقيّدونه إلى مائدة القرابين، وتردد صدى ذلك الإعلان في ثنايا
عقله وهو يرى نصل السكين يلمع في الهواء متجهًا إلى عنقه.. هل لا

تفهم شيئًا من حولك؟

لا.. لا.. ما هذا الهراء؟ لا، أنا لن أكتب هذه القصة الغريبة.

* * *

انطلق عدنان في طريقه، وفجأة لمع الحل في عقله بغتة.. بدت
تلك العبارة التي قالها العجوز واضحة جلية في عقله، ولكن ماذا كان

يقصد.. نعم إنه يتذكر جيدًا.. لقد كان يقول إن كل هذا قصة.. فقط
مجرد قصة.

الفهرس

٥	ضوء في آخر النفق.....
٩	الكابوس.....
٢١	الآخر.....
٣٧	دورية.....
٥٥	بلياتشو.....
٦٥	فارس.....
٩٣	بايرومينيا.....
١١١	هاتف منتصف الليل.....
١٢٩	سبعة.....
١٤٧	حارة الشيخ شحاتة.....
١٨٥	هلاوس.....

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالإنجليزية ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ، كلمنا ..
هنعمل كل اللي نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن في كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 - 01001872290 - 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :



kayanpublishing



kayan.publish



kayanpublishing



kayan_publishing